اول يوليو سنة ١٩٦٢

المكتبة الثقافية
جامعة حرة
١٧٨

هزيمة الهكسوس

أول ثورة تحريرية فى التاريخ

بقلم : محمد العزب موسى



الثمن ٣ قروش

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

المكتبة الثقافية

أول مجموعة من نوعها
تحقق اشتراكية الثقافة
تيسر لكل قارئ أن يقيم
فى بيته مكتبة جامعة
تحوى جميع ألوان المعرفة
بأقلام أساتذة ومتخصصين

●

العدد القادم

السياسة المالية
فى
النظام الاشتراكى

تأليف
دكتور عبد المنعم فوزى



المؤلف
الأستاذ محمد العزب موسى

- ولد فى القاهرة عام ١٩٣٥
- حصل على ليسانس الحقوق ١٩٥٥ وماجستير فى العلوم السياسية ١٩٥٩
- صحفى بأخبار اليوم وعضو مجلس نقابة الصحفيين .
- أصدر ثلاثة كتب : الاستعمار ينهب خيرات الشعوب (١٩٥٩) ، انشودة الصقر (١٩٦٠) ، اول ثورة على الاقطاع (١٩٦٦) .
- نشر مقالات عديدة فى السياسة والأدب والتراجم فى مجلات الكاتب والمجلة والمساء وصحف اخبار اليوم .

طبع بمطابع الدار

تمهيد

نحن أقدم شعب حضارى فى التاريخ ..

ان التاريخ المكتوب لحضارة الانسان يبدأ فى مصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وقبل هذا التاريخ شهدت مصر امتدادا حضاريا يتوغل آلافا أخرى من السنين فى أعماق ما قبل التاريخ ..

ولكن الشعب المصرى لم ينعزل فى واديه ، وتاريخه الخاص بل امتزج بشتى حضارات التاريخ العظيمة ، وامتص ثقافات العالم المختلفة على مدى خمسة آلاف عام حتى الآن ..

وكان أعظم انقلاب حضارى فى تاريخ مصر هو الذى حدث بالفتح العربى حين عربت مصر ، فامتزجت بذلك حضارتين من أعظم الحضارات العالمية .. المصرية والعربية .

وعلى طول هذا التاريخ العظيم شاركت مصر بدور رئيسى فى كل تطورات التاريخ ، وصرعت جميع المعتدين ، وأبادت كل الغزاة ..

وعلى أرض مصر العربية سوف يشهد العالم مصرع آخر هؤلاء الغزاة المعتدين .. الامبرياليين الصهيونيين ..

هذا هو دور مصر التاريخى تتحرك لانجازه ..

لقد بدأنا بالهكسوس، وننتهى اليوم بأحفاد الهكسوس .

مقدمة

في عام ١٨٥٧ أراد سعيد باشا والى مصر أن يتقرب من نابليون الثالث امبراطور فرنسا فضحى في سبيل ذلك بأثر عزيز خالد من آثار مصر القديمة .

فقد طلب الامبراطور نابليون الثالث من سعيد باشا أن يقدم تسهيلات لزيارة يقوم بها الامير نابليون ابن عم الامبراطور الى مصر . وكان الامير نابليون قد عاد لتوه الى فرنسا من زيارة قام بها في المحيط المتجمد ، ولما كان هذا الأمير مصدر قلق سياسى لابن عمه الامبراطور فقد أعد له الامبراطور رحلة أخرى الى مصر ليبعده عن فرنسا . ورحب الأمير بالرحلة ممنيا نفسه أن يحصل على بعض كنوز الفراعنة التى كانت تكتشف تباعا في ذلك الحين وتهز العالم بأنبائها ، وكانت الزيارة التى قام بها الارشيدوق مكسيميليان النمساوى الى وادى النيل لا يزال صداها يتردد

فى الأذهان فأراد الامير الفرنسى أن يقوم برحلة مماثلة يتفوق بها على قرينه النمساوى ويحصل على مجموعات أثرية أهم من تلك التى حملها معه الى النمسا .

وتفتق ذهن سعيد باشا عن خطة لارضاء الأمير الفرنسى ، وبالتالى ارضاء ابن عمه الامبراطور ، فبعث فى طلب العالم الأثرى مربيت وكان يعمل فى متحف اللوفر بباريس ومنحه بعثة مدتها ثمانية أشهر يقوم خلالها بحفريات فى صعيد مصر ، وطلب منه أن يدفن ما يعثر عليه مرة أخرى فى مكانه حتى اذا مر سمو البرنس لم يجد صعوبة فى العثور على الآثار مما يرضى غروره ويدخل السرور الى قلبه !

وفى نفس الوقت وصل الى مصر عالم أثرى آخر هو هنرى بركسن فاشترك مع مربيت فى أعمال الحفر ، وقام الرجلان بنشاط محمود فى الجيزة وسقارة والعرابة المدفونة وطيبة (الأقصر) والفنتين أسفر عن كشف بعض الآثار الهامة .

ولم تتم رحلة الامير ، وانقضت الثمانية أشهر وكان على مربيت أن يعود الى بلاده ، ولكنه قرر البقاء فى مصر بعد أن أيقن أن مستقبله العلمى يكمن فيها ، فكيف السبيل الى ذلك ؟

أوعز مربيت للأمير نابليون أن يتدخل لدى سعيد باشا ليبقيه فى مصر نظير أن يستولى له على بعض الهدايا

الأثرية من رحلته التى لم تتم ورحب الامير نابليون بالعرض وأبلغ مرييت أنه لا يهتم كثيرا بالآثار ذات القيمة العلمية ولكنه يريد أن يحصل على مجوهرات وتماثيل صغيرة ونماذج من الفن المصرى . ثم استغل الامير نابليون نفوذه لتعيين مرييت مأمورا للآثار بالقطر المصرى .

كان من بين ما عثر عليه مرييت فى تنقيبه لرحلة الامير تابوت لأحد ملوك مصر الأقدمين مدفون تحت كومة من التراب فى جبانة « ذراع أبو النجا » لم يكن بالتابوت الذى يستوقف النظر أو مما يحلو بالتالى فى عين الامير الفرنسى فلم يكن موشى بالذهب والنضار ، ولم يكن بالتحفة الفنية فى حد ذاته ، بل كان تابوتا عاديا من الطراز الريشى الذى يستعمله الأفراد لا الملوك ، ولكنه بالنسبة لمصر ومن زاوية تاريخها الوطنى كان أثرا بالغ القيمة اذ أنه تابوت الملك كامس أحد الأبطال الذين حرروا مصر من احتلال الهكسوس .

ولما فتح مرييت التابوت وجد أن مومياء الملك كامس لم تكن قد جهزت للدفن بعناية شأن كل المومياوات الاخرى المتخلفة عن ذلك العصر المضطرب ، ولذلك سرعان ما تحللت عندما تعرضت للجو وتحولت الى حفنة من التراب وكان مربوطا على أعلى ذراع الملك بردية مجدولة جدلا أنيقا ووضع على صدره طغراء ملكية محاطة من كلا الجانبين بأسد مصنوع من الذهب الخالص ، بالاضافة الى مرآة من البرنز ،

وخنجر من الطراز النوبى ومجموعة من الجعارين والتعاويذ ..

وكانت هذه الاشياء ضمن ما اشتملت عليه الهدية التى قدمت الى الامير نابليون ، وآل مصير الخنجر الى متحف بروكسل ببلجيكا ، والطفراء والاسدين الى متحف اللوفر بباريس ، واختفت الجعارين والتعاويذ فلا يعلم أحد عنها شيئا .

نذكر هذه القصة التى أوردها عالمنا الأثرى الكبير المرحوم سليم حسن فى كتابه الرابع عن مصر القديمة للتدليل على مدى الاهمال التى لقيته كنوزنا الاثرية عندما كانت فى أيد غير مصرية أمينة ، وقد انتهبت بالطبع آثار مصرية كثيرة فى مختلف العصور ، آثار ذات قيمة لا تقدر بثمن ، فليس مما ينتقص ثروتنا الاثرية كثيرا أن نفقد أيضا مخلفات الملك كامس ولكن هذه الخسارة اذا نظرنا اليها منزاوية الروحالتحررية المصرية تبينمدى جسامتها، ان هذا الخنجر الذى يبلغ طول نصله ٢١ سنتيمترا ويثوى الآن في احدى الفترينات الزجاجية بمتحف بروكسل ساهم فى تحرير مصر من أول أعدائها الذين أرادوها بسوء، كم أغمده صاحبه فى صدور أعداء الوطن ، كم كان أملا ورجاء للمصريين وخطرا مرعبا للهكسوس ، ان هذا الخنجر البسيط قد لعب فى تاريخ مصر دورا خالدا ولولا اليد التى أمسكت به لربما تغير تاريخ مصر والشرق القديم ، أفلا يحق لنا اذن أن نأسف على ضياع هذا الرمز ؟!

ويحكى سليم حسن قصة أخرى عن انقاذ آثار الملكة أعح حتب فى آخر لحظة ، وهذه الملكة هى أم كامس وأحمس وزوجة سقنن رع أول شهيد مصرى فى الجهاد من أجل الحرية ، وكانت لها مكانة كبيرة لدى المصريين فى عهدها وما تلاه من عهود . فقد كشف عمال مرييت أيضا عن تابوت تلك الملكة فى خرابة قريبة من جبانة « ذراع أبو النجا » ، وكان مرييت عندئذ موجودا فى القاهرة ففتح مدير قنا التابوت وعندما شاهد ما يحويه من مجوهرات سولت له نفسه الاستيلاء عليها ، ولكن أحد الموظفين المصريين أبلغ مرييت بالامر فى خطاب ضمنه قائمة بمحتويات تابوت الملكة أعح حتب ، وعلم مرييت أن كنوز الملكة المصرية هربت فى قارب فى النيل ، فحصل على أمر وزارى بالاستيلاء على أى قارب يحمل آثارا وسار فى النيل مع مجموعة من أعوانه حتى اذ وصل الى سمنود لمح القارب الذى يحمل الكنز الفرعونى ، وما هى الا نصف ساعة حتى تلاقى القاربان « وبعد تبادل كلمات صاخبة مصحوبة باشارات عنيفة هدد مرييت أحد الذين كانوا فى القارب الآخر بأنه سيلقيه فى الماء ، وهدد الثانى بأنه سيشوى مخه ، والثالث بأنه سيرسله الى الاعمال الشاقة فى السفن ، والرابع بأنه سيضع حبل المشنقة حول عنقه ، وكانت النتيجة أن خاف حفظة الكنز وسلموه الى مرييت مقابل صك بالاستلام ، وعندما فتح مرييت التابوت وجد به كمية من المجوهرات والتعاويذ والرموز الملكية ، ولم

يكن ما يحويه من الذهب يزيد على كيلوجرامين ولكن قطع المجوهرات كانت قد صيغت بمهارة فائقة ورصعت بأحجار كريمة وميناء ملونة ، وقد سارع مربيت بهذه المجوهرات الى سعيد باشا وكان عندئذ بالاسكندرية وقص عليه القصة بطريقة خلابة حتى أن سعيد استغرق فى الضحك وشمله برعايته ، وقد استولى سعيد من هذا الكنز على سلسلة ذهبية معلق فيها جعران وأهداها الى أحب زوجاته اليه ، ولكنه لم يلبث أن أعادها بعد فترة وجيزة الى متحف بولاق ٠

هكذا أوشكت آثار هذه الملكة العظيمة أن تضيع كما ضاعت آثار ابنها كامس ٠ أما آثار زوجها العظيم سقنن رع فقد كانت من نصيب الناهبين القدماء ، وقد كشف تابوت هذا الملك الشهيد عام ١٨٨٠ فى الخبيئة القريبة من معبد الدير البحرى ٠ ومن الارجح أن لصوص المقابر القدماء لم يسطوا على قبر هذا الملك كما قررت ذلك لجنة التحقيق التى أقامها رمسيس التاسع لجرد قبور طيبة عندما علت الشكوى من أفعال اللصوص ولكن يبدو أن عملية السطو تمت بعد ذلك على يد الكهنة الذين يتولون حراسة التابوت ، فقد كان التابوت،وهو أيضا من الطراز الريشى مغطى بطبقة من الذهب أغرت الكهنة الحارسين بالسرقة فانتزعوا الطبقة الذهبية ووضعوا مكانها طبقة من المداد الأصفر ، ولكنهم حذروا أن يمسوا الجزء الذى على الصدر وكذلك اسم الاله بتاح لاعتقادهم أن العبث برموز

الآلهة يسبب الموت لكل من انتهك حرمتها ، أما اللصوص المحترفون فلم تكن تعوقهم بالطبع مثل هـذه الخرافات ، وقد حاول الكهنه الحارسون اخفاء جريمتهم بأن طلوا مكان الذهب باللون الاصفر ولا سيما الوجه ولباس الرأس ، ثم كتبوا النقوش بالمداد الاحمر ثانيه ورسموا قلادة على الصدر ، وخطوطا زرقاء حول العينين اللتين انتزع منهما اطارهما الذهبى ، أما باقى غطاء التابوت فقد ترك مغطى بالجص الابيض الذى انتزعت منه طبقته الذهبية ولا تزال نقوش التابوت واضـحه رغم هذا التخريب تقول « ملك الوجه القبلى والوجه البحرى سقنن رع ابن الشمس تاعا الشجاع » .

هذا ما فعله الزمن بآثار بعض الشخصيات البارزة فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ مصر . ويكاد لا يسلم من عبث الزمن من أبطال هذه الفترة سوى أحمس محرر مصر وواضع أساس الامبراطورية التى بنتهـا الدولة الثامنة عشرة ، فلا تزال مومياء أحمس فى حالة جيدة وتدل على أنه مات فى ربيع العمر بين الاربعين والخمسين وأنه كان رجلا قويا عريض المنكبين أسود الشعر جعده ، له ثنايا بارزة بعض الشىء ، وهى سـمة كانت تميز كل أعضاء أسرته النبيلة ، وقد طوق جيده باكليل من الزهر .

أما زوجته الاميرة أحمس نفرتارى فقد عثر أيضا على موميائها مع مومياء سيدة أخرى للتمويه ولما كانت احدى المومياتين غير جيدة التحنيط لذلك انبعثت منها رائحـة

كريهة عندما تعرضت لرطوبة الجو فدفنت فى حديقه المتحف المصرى ، وقد ظن بعض علماء الآثار ان التى دفنت هى نفرتارى نفسها وأعربوا عن أسفهم للمصير الذى لقيته المومياء الملكيه ، غير ان هذا الظن ليس فى محله ، والأرجح أن المومياء المدفونه تخص السيدة الاخرى ، ومومياء الاميرة أحمس نفرتارى ثاوية فى قاعة الموميات بالمتحف •

وعلى أى حال ، فاننا نشكر الزمن الذى حفظ لنا رغم قسوته تلك الشواهد البالغةالاهمية التى تحكى فصلا من أروع فصول تاريخنا الطويل الحافل بالأمجاد ، بل من أروع فصول التاريخ العالمى كله ، لأنه يحكى قصه أول حرب تحريرية وأول مثل ضربته البشرية على جدوى الكفاح المسلح ضد الظلم والعدوان •

وهذه القصة غامضة الى حد كبير لأن الفترة التى حدثت فيها لم تترك آثارا تبدد ظلماتها ، فقد أوقف الهكسوس دواليب الحضارة المصرية وما درجت عليه منذ أقدم العصور من عادة تسجيل الاحداث على الصخور • وعندما استأنف المصريون نهضتهم بعد خلاصهم من هذا البلاء تجنبوا تسجيل تلك المحنة التى تعرضوا لها الا فى أضيق نطاق فقد كان دأبهم تسجيل الانتصارات لا الهزائم والتفاخر بالحاضر لا التباكى على الماضى •• ولكن على أى حال فان الآثار القليلة التى خلفها العصر ، ومنها موميات ومخلفات أبطال طيبة العظماء ، كافية لجلاء الكثير من الغموض ، وابراز وجه الكفاح المصرى المجيد •

القسم الاول

الإحتلال

- ١ -

لم يكن نزول الهكسوس الى مصر عقب انهيار الدولة الوسطى هو أول عهد مصر بالعامو .. فقد ألفت مصر منذ أقدم عصورها منظر أولئك البدو الآسيويين الذين يهبطون الى واديها الظليل قادمين من بلادهم الصحراوية القاحلة التماسا لطيب العيش ورخائه .

كانت العلاقات بين مصر والشرق قد توطدت منذ أمد بعيد .. طرق الصحراء الطويلة الملتوية كالثعابين قد كشفت عن أسرارها للآسيويين والمصريين على السواء والقوافل التجارية تأتى من أعماق آسيا لتحط أحمالها على ضفاف النيل ، ومراكز الحراسة المصرية تنبث بين مفارق الطرق الرئيسية لتؤمن طريق القوافل وتنشر السلام المصرى فى ربوع العالم القديم .

تلك كانت الحال فى عهد الدولة الوسطى التى أعادت

مجد الدولة القديمة بعد فجوة ضعف استغرقت مئـــات السنين، لقد ألف مصريو ذلك العهد منظر العامو الآسيويين بلحاهم الطويلة وجلودهم البيضاء وملابسهم المصنوعة من الجلد والوبر وكافة مظاهر حضارتهم القائمة على حيوان الصـــحراء .. ألفهم المصريون يبرزون فوق الهضـاب الشرقية يسوقون أمامهم أنعامهم التى أضناها الرحيـــل والتعب ، ويضربون خيامهم التى مزقتها الرياح ولفحتها الشمس ويمدون يد الرجاء الى مصر القوية الثرية آملين أن تسمح لهم بالعيش على هامشها فى أمان .

ولم يكن المصريون يخفون استهانتهم بشأن هؤلاء البدو الوافدين ، أولئك الذين لا ظلال لهم من الثقـافة أو الحضارة أو التاريخ ، ولكن سكان الوادى لم يكونوا فى نفس الوقت يأمنـــون جانبهم على طول الخط ، فقد عرفوا عن أخلاقهم ما يشين ، وانهم جاءوا وراء النفع بأى ثمن ينتهزون أية بادرة من الضعف للقيام بأعمال الســلب والنهب .

وقد ورث مصريو ذلك العصر عن أجدادهم فراعنة العصور السابقة تحذيرات كافية من خطر العامو فالواقع أنهم أغاروا على مصر وأنشبوا أظافرهم فى الدلتا فى زمن الاضطراب الاجتماعى فى عصر الاقطاع الاول ، ونقشوا أسماءهم السورية شماى وتلولو وعانو على الجعارين القليلة المتخلفة عن ذلك العصر ، وكان الحـكيم ايبـور فى أواخر

الاسرة السادسة يتأسف قائلا : « لقد نزل قوم غرباء من الخارج الى مصر لأن الدلتا أصبحت بلا حماية ، ولا صانع يعمل لأن العدو حرم البلاد حرفها وأصبح الاجانب مهرة فى صناعات البلاد » .

وكان نفر روهو فى أوائل الاسرة الثانية عشرة يتأسف قائلا : « ان كل ما هو طيب قد ولى والبلاد خضعت للشقاء وغزاها البدو ، ان الاعداء قد ظهروا فى مصر والآسيويين قد نزلوا الى أرض مصر » .

وكان الملك خيتى الرابع من ملوك الاسرة العاشرة الاهناسية يحذر ابنه مريكا رع من خطر الغزو الخارجى ، ويحثه على اتخاذ التدابير الكافية للدفاع عن الحدود الشرقية ، ويصف له المحارب الآسيوى الذى يأتى للسلب والنهب ثم ينسحب أدق وصف قائلا : « انه لا يستقر فى مكان واحد ، ان ساقيه قد صنعتا كى تتجولا به بعيدا ، انه يحارب منذ أيام حورس (أى منذ الأزل) وهو لا يقهر ولا يقهر ، ولا يحدد يوما للقتال ، بل هو كاللص الذى يعمل فى عصابة يهاجم الشخص اذا كان يسير بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة بها سكان كثيرون » .

لذلك اهتم ملوك الأسرة الثانية عشرة باقامة التحصينات المنيعة على حدود الصحراء ، وكانوا يطلقون على هذه التحصينات « حائط الحاكم التى أقيمت لصد

الآسيويين وسحق المسافرين فى الرمال » • وكان فراعنة الاسرة الثانية عشرة يحافظون بذلك على تقليد مصرى قديم هو حماية الوطن وتاديب الطامعين فيـــه ، فكم قام الملوك الاوائل بحملات عسكريه لتأديب بدو الصـــحراء ، وفى وادى المغارة بسينـــاء كثير من النقوش التى تمثــل بعض ملوك الدوله القديمة أمثال زوسر وســـنفرو وخوفو وهم يؤدبون بدو المنطقة التى هى اليوم شمالى الجزيرة العربية وجنوبى فلسطين • وثمة نقوش أخرى لاعمال حربية بين المصريين والآسيويين فى مقبرتين فى دشـــاشة وسـقارة تعودان الى أواخر الاسرة الخامسة أو أوائل الاسرة السادسة تمثل الجنود المصريين وهم يهاجمون بعض الحصـــون فى جنوب فلسطين ويسحقون قريتين احداهما تسمى « مدينة العدو نيديا » والاخرى تسمى « مدينة العدو عين كا » او « ينبوع كا » ومن الواضح أنه اسم سامى وفى عهـــد امنمحات الاول مؤسس الأسرة الثانية عشرة أرسلت حملة عسكرية واحدة الى فلسطين لتأديب البدو المقيمين هنـاك وحماية الطريق التجارى العظيم الذى كان يخترق المنطقة حاملا التجارة من مصر واليها •

كما تدل قصة سنوحى التى تعود الى الاسرة الثانية عشرة على الروابط القوية التى كانت قائمـــة بين مصر والشام ، وتحكى هذه القصة هرب المواطن سنوحى من مصر الى الشام بعد مقتل امنمحات الاول خشـــية أن يتهم لدى

خليفته سنوسرت الاول بأنه من المتآمرين على قتله ، ويلجأ سنوحى الى بلاد البدو فى جنوب سوريا حيث يتعرف على أمير البلاد ويتزوج من ابنته ثم يصبح هو نفسه سيدا لاحدى القبائل المحلية ، وينجب ذرية كبيرة وينشر السلام فى ربوع المنطقة ، ولكنه يحن الى الوطن فى شيخوخته ، فيطلب من الفرعون سنوسرت الاول أن يأذن له بالعوده الى وطنه ليدفن فى ثراه ويسمح له سنوسرت بذلك ويعود سنوحى الى وطنه حيث يقضى بقية حياته راضيا مكرما ٠

والشواهد كثيرة أيضا على زيارات الآسيويين لمصر ففى احدى مقابر بنى حسن فى عهد الدولة الوسطى نرى جماعة من البدو الآسيويين تضم ٣٧ فردا على رأسهم زعيم يدعى « ابشا » وقد جاءوا الى مصر يحملون هدايا غريبة منها طلاء أخضر اللون للعيون ، وفى التراث السامى القديم أن أبا الانبياء ابراهيم الذى عاش فى وقت معاصر للدولة الوسطى يزور مصر هو وزوجته سارة لمحاجة كهنتها فى شئون العقيدة ٠ ويقترن ابراهيم من الجارية المصرية هاجر وينجب ابنه الاكبر اسماعيل ٠

ولكن هؤلاء البدو الوافدين كانوا يعيشون كأقلية على هامش مصر ، لا يكادون يزعجون أحدا بأمرهم ، بل يشعرون بعرفان الجميل لتلك البلاد الثرية القوية المضيافة التى هيأت لهم نعمة الاستقرار والشبع ،

وسرعان ما تهضمهم الحضارة المصرية أو يعودون من حيث أقبلوا بعد حين ٠

أما الآن فهـــا هى مصر تتعرض لتجربة مريرة اذ يغزوها من الشرق محاربون أقوياء ينزعون الســلطة من أيدى أبنائها ويسـومونهم أولا اذلال فى تاريخهم الطويل منتهزين فرصة الضعف الداخلى الذى أصــاب مصر فى عقاب انهيار الدولة الوسطى ٠

ولكن كيف كانت الدولة الوسطى ولماذا انهارت على هذا النحو المرير ؟

- ٢ -

قامت الدولة الوسطى فى مصر بعد مرحلة طويلة من الضعف والضياع ، كانت مصر قد خرجت لتوها من عصر الاقطاع الاول الذى ســاد من نهاية الاسرة الســادسة الى قيام الاسرة الحادية عشرة ، وفى هذا العصر الذى اسـتمر حوالى ١٥٠ عاما تفتتت السلطة المركزية وانقسمت البلاد الى عشرات من الوحدات الاقطاعية المتناحرة ، وقامت ثورة شعبية عارمة اقتلعت جذور الاستقرار الاجتماعى وهدمت الصرح الفكرى الذى قامت عليه الدولة القديمة ، وطمع البدو فى مصر فغزوا أجزاء من الدلتا وقوضوا صناعات البلاد ، وانهارت الحالة الاقتصادية فبارت الاراضى ، وأهمل

الرى ، وتوقفت التجارة الداخية والخارجية نتيجة لاصطراب الامن ، ولم يعد العظماء يبنون الاهرامات والمقابر ولم يعد الفنانون ينحتون النقوش والتماثيل ، ولم يعد الكهنة يتعمقون أسرار العلم والدين ، ولكن ، وهذه احدى معجزات الشعب ، لم تدمر هذه الظروف العصيبة معنويات المصريين ، بل كانت بمثابة صدمة عنيفة جعلتهم يفيقون الى معان جديدة فى الفكر والحياة ، وكأنهم بعد أن خسروا كل شىء وجدوا نفوسهم خالصة من قيود الماضى ، وعقولهم متحررة من أغلال التقاليد فصاغوا قيما فكرية جديدة أشرقت على أيديهم لاول مرة فى التاريخ مثل الشك فى الغيبيات والدعوة للعدالة الاجتماعية والديموقراطية الدينية ٠

وأخيرا خرجت مصر من هذه الظلمات بقيام الاسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٣٢ ق٠م٠ وقام فراعنة هذه الاسرة وموطنهم طيبة بجهود كبيرة لتحقيق المركزية وانقاذ البلاد من الفوضى ، وأستغرق حكم الاسرة الحادية عشرة حوالى ١٤٠ عاما ثم قامت الاسرة الثانية عشرة حوالى عام ١٩٩٠ ق٠م٠ واستمرت فى الحكم أكثر من قرنين ، وتعتبر هذه الاسرة من أمجد الاسرات التى حكمت مصر اذ عكفت على تشييد صروح الحضارة من جديد ، وارتقى عرشها سلسلة من الفراعنة العظام يحملون اسمى امنمحات وسنوسرت،عنوا بتوطيد الامن ، وتحقيق الرخاء ، وتحسين

وسائل الرى ، واصلاح الاراضى الزراعية ، وبناء المعابد ، وحمايه حدود البلاد ، ولم تكن مصر فى عهدهم بالقوة العسكرية الغازيه ولكنها كانت تتمتع بما يشبه حقوق الدول الكبرى على سوريا وفلسطين ، وكان حكام هذه المناطق يتقربون الى فراعنة مصر بالهدايا وأمارات الولاء ، وكانت خطوط التجارة المصرية تمتد كالشرايين المتشعبة فى تلك البقاع من آسيا وتقوم بحراستها حاميات مصرية قوية لا ينبغى أن تختلط فى الاذهان بقوات الاحتلال .

ومؤسس الاسرة الثانية عشرة هو امنمحات الاول الذى كان على الارجح وزيرا لدى آخر ملوك الاسرة الحادية عشرة ثم استولى على الحكم لانقاذ البلاد من الانهيار الذى أوشكت على التردى فيه فى أواخر أيام هذه الاسرة حين أخذت شوكة الاقطاعيين تشتد من جديد ، وتكثر الفتن والمؤامرات ، وحكم امنمحات ثلاثين عاما شاركه فى السنوات العشر الاخيرة منها ابنه سنوسرت الاول ، ويعد امنمحات من أعظم ملوك مصر على الاطلاق ومن أوسعهم أفقا واكثرهم مرونة ، ولكن المؤامرات لم تنقطع فى عهده حتى أنه هو نفسه مات مقتولا بيد بعض أتباعه الذين هاجموه خلسة أثناء نومه بينما كان ابنه وشريكه سنوسرت فى حملة لتأديب الليبيين .

لقد فعل امنمحات الاول الكثير لانقاذ مصر من كبوتها والسير بها الى الامام ، ولكن مصر ظلت تعانى نقطة ضعف

قاتلة كامنة كالداء العياء ، تلك هى آثار الاقطاع الذى لم يقض عليه تماما ، والواقع ان امنمحات انتهج سياسة خاصة تجاه مشكلة الاقطاع عادت بالوبال فى نهاية الامر ولكنها كانت السياسة الممكنة الوحيدة على أى حال ، اذ لم يعمد امنمحات الى القضاء الحاسم على أمراء الاقطاع الذين ظل نفوذهم قويا بالرغم مما فعلته بهم الاسرة الحادية عشرة ولا سيما ثانى ملوكها منتوحتب الثانى الذى هزم اهناسيا ووحد البلاد من الناحية السياسية ، وانما عمل امنمحات الاول على مهادنة أمراء الاقطاع بشرط ان يعلنوا ولاءهم للسلطة المركزية ، ويقدموا لها الاموال والرجال ، ويعترفوا بنوع من الاشراف المركزى على شئونهم الداخلية ، وكان يقرب اليه الامراء الذين يرتضون هذه الشروط ويعلنون ولاءهم للملك ويأخذ بالشدة أولئك الذين تسول لهم أنفسهم التمرد ومناصبة الملك العداء ، وهكذا لم تكن مصر فى عهد الاسرة الثانية عشرة دولة مركزية بمعنى الكلمة ولكنها كانت أشبه بالاتحاد الفيدرالى والنتيجة أن ظلت البذرة الاقطاعية فى أحشاء النظام الجديد أشبه بقنبلة زمنية تنتظر ساعة الانفجار ، وظل الاستقرار يرتكز على أساس مهتز ، فالبيوت الاقطاعية تتوارث الحكم جيلا بعد جيل ، وتزداد نفوذا وثراء بمرور الايام وهى رغم تظاهرها بتأييد النظام الجديد خاصة اذا كان الملك الجالس على العرش قويا الا أنها تطوى جوانحها على معارضة الحكم المركزى وتتحين الفرص للتمرد ٠

لنا أن نتصور اذن وجود صراع مستمر ومستتر بين الملك والاشراف طوال عهد الاسرة الثانية عشرة ، وأحيانا كان هذا الصرع يأخذ مظهرا علنيا وينتهى بانتصار هذا الطرف أو ذاك ، فمثلا كان امنمحات الثانى لين العريكة خلافا لأبيه سنوسرت الأول وجده امنمحات الاول فاتخذ موقفا مهادنا من أمراء الاقطاع • ويبدو أن سبب ذلك ما ورثته البلاد فى عهده من أمن ورخاء نتيجة لجهود أبيه وجده مما جعله ينصرف الى حيـــاة الدعة والترف وأدى بالتالى الى ازدياد نفوذ الاشراف ، واستمر الحال كذلك فى عهد ابنه سنوسرت الثانى ، ولـــكن عندما ارتقى العرش سنوسرت الثالث أحد الفراعنة الاقوياء وقف موقفا حازما من الأشراف وكاد يقضى عليهم تماما ويحولهم الى موظفين تابعين للسلطة المركزية ، غير أن نفوذ الأشراف عاد الى الظهور فى أواخر الاسرة الثانية عشرة ولا سيما بعد حكم امنمحات الثالث • وفى هذه الفترة أيضا برزت على المسرح السياسى قوة أخرى مناوئة للاشراف هى قوة قادة الجيش أو رؤساء الجند ، ومع ضعف السلطة المركزية التى يمثلها البيت الحاكم تطاحنت القوتان وانفجر صراع داخلى رهيب بعد وفاة الملكة سبك نفرو رع آخر من جلست على عرش مصر من ملوك الاسرة الثانية عشرة •

وضاعف من سوء الأحوال ظهـــور أعداء أقوياء فى الشرق والجنوب ، أولئك هم البدو والبرابرة الذين كان الفراعنة الاقوياء يرغمونهم على التزام حدودهم فى الماضى ،

أما الآن فقد طمعوا فى مصر وهم يشهدون أمارات تفسخها الداخلى فبدءوا يحطون عليها كالجراد الذى تطرده الصحراء القاحلة الى الزرع الأخضر .

وقد خلفت لنا آثار ذلك العهد دمى وأوانى من الفخار تحمل أسماء أعداء العرش والبلاد مقرونة بلعنات يطلق عليها الآن نصوص اللعنة ، وكاد الغرض منها ان يجرى تحطيمها فى احتفالات خاصة وسط مراسم دينية وسحرية معينة فى حضور الملك والكهنة لتجلب اللعنة على أصحاب الأسماء الواردة فيها وترد كيدهم الى نحرهم .

وتمكن المؤرخون من معرفة الكثير عن أحوال مصر وأعدائها فى هذه الفترة من تلك النصوص ، فهى تذكر مجموعات مختلفة من الاسماء منها أسماء سودانية وآسيوية ومصرية ، وبعضها لأفراد الاسرة المالكة أنفسهم مما يدل على أنه كانت هناك خلافات فى البيت المالك ومؤامرات من سيدات القصر لتولية أبنائهن دون ابناء الاخريات . وتظهر فى بعض النصوص أسماء آلهة سامية مثل شمش وهدد وايل ، وأسماء مدن سورية مثل بيبلوس ويافا وعسقلان .

والملاحظة التى ينبغى استنتاجها أن مصر فى ذلك الوقت بلغت حدا من الضعف جعلها تلجأ الى السحر لمحاولة سحق أعدائها بدلا من أن تلجأ الى القوة التى كانت تفتقدها ، فاذا كان الملوك فى الماضى يجردون السيف على

الاعداء ويقيمون الحصون المنيعة فى الصحراء ، فانهم الآن يكتفون بصب اللعنات على خصومهم ويحاولون الكيد لهم سحرا ٠

كانت هذه اذن هى الظروف التى واكبت انهيار الدولة الوسطى ٠٠ صراع داخلى بين حكام الاقاليم بعضهم البعض ، وصراع بينهم وبين السلطة المركزية ، وانشقاق فى البيت المالك نتيجة للخلافات العائلية والتنافس على العرش وتربص من أعداء البلاد الذين ينتظرون لحظة الانقضاض المأمولة ٠

- ٣ -

ولسنا نعرف على وجه اليقين كيف انتقل الحكم الى الأسرة الثالثة عشرة أو بيت منف بعد وفاة الملكة سبك نفرو رع آخر من حكمت باسم الأسرة الثانية عشرة فى الفيوم وهل كان سخم رع خوتوى الذى يقال انه مؤسس الأسرة الثالثة عشرة زوجا للملكة الراحلة أم كان مجرد مغتصب للعرش ولكن المرجح على أية حال أن انتقال السلطة الى الأسرة الجديدة قد تم بدون هزة عنيفة ، وأن الأحوال أستقرت بعض الشىء فى عهد الملوك الأربعة الأول من الأسرة الجديدة ، اذ تدلنا الآثار القليلة المتبقية من عهدهم على أن الضرائب كانت تجبى كالمعتاد ، ومستويات ارتفاع النيل

تسجل كل عام ، ولكن بدأ الاضطراب يعود كأشد مما كان عليه فى أيام الملك الخامس من ملوك الأسرة الثالثة عشرة، اذ تنقطع فجأة قائمة **تورين** التى تسجل أسماء ملوك مصر عند ملك يسمى أوفنى وهو اسم لا يحمل الألقاب الملكية المعهودة مما يدل على أن العرش قد اغتصب .

وبدأت بعد ذلك سلسلة لا تكاد تنقطع من الاضطرابات ، فكثر المطالبون بالعرش وأخذوا يتعاقبون على الحكم تباعا ، فما يكاد أحدهم ، كما يقول برستيد ، يرتدى الشارات الملكية حتى يخلع ويحل آخر محله، وكان بعض هؤلاء الملوك يفخرون باغتصابهم للعرش مثل نفرحتب الذى لم يكن يخفى وضاعة أصله بل كان يسجل فى آثاره اسمى والديه المجردين من الألقاب ، وكان بعضهم يحمل لقب قائد الجيش مما يدل على تغلب حزب العسكريين أحيانا على حزب الأشراف ، بل كان بعضهم من أصل غير مصرى مثل ذلك الملك الذى يحمل لقب « نحسى » أى زنجى ، والمرجح أنه كان على صلة وثيقة بالهكسوس الذين بدءوا يستقرون فى ذلك الحين فى شرق الدلتا اذ يفخر بأنه « حبيب ست رب أواريس » وهناك ملك آخر يدل اسمه « خنجر » على أنه من أصل بابلى .

وكان معظم ملوك هذه الفترة يحكمون مددا قصيرة للغاية لا تعدو عاما أو عامين ، ونجد أمام اثنين منهم فى قائمة تورين مدة الحكم ثلاثة أيام فقط ، وقد أمكن احصاء

١٨٠ ملكا تكالبوا على العرش فى هذا العصر الحالك السواد خلال قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان البعض منهم يحكمون متعاصرين فى نفس الوقت .

وتدهورت الحالة الاقتصادية تدهورا شديدا نتيجة لعدم الاستقرار السياسى وعدم وجود حكومة قوية تشرف على نظام الرى وتفرض الأمن والاستقرار كما تدهورت أو توقفت التجارة الخارجية ، وانصب البلاء على الشعب نتيجة لضغط الفئات المتحاربة ، وما يفرضه الأسياد المتنافسون من ضرائب باهظة لتمويل منازعاتهم على السلطة .

وهكذا أصبحت الظروف مهيأة لاستيلاء البدو الوافدين على السلطة فى مصر .

- ٤ -

احتل الهكسوس مصر فى الفترة المتوسطة الثانية أو عصر الاقطاع الثانى ، وهى كما رأينا فترة انحل فيها الحكم المركزى الى اقطاعيات متنافسة بعد انهيار الدولة الوسطى ، وتشبه الى حد كبير الفترة المتوسطة الأولى التى تلت انهيار الدولة القديمة ، واذا كانت الفترة الأولى قد شهدت ثورة شعبية عارمة قضت على مظاهر الحضارة المألوفة فان الفترة الثانية شهدت بدورها احتلال الهكسوس الذى قضى أيضا على السمات المميزة للمدنية المصرية القديمة .

ولم يكن غزو الهكسوس لمصر من قبيل الفتوحات الامبراطوريه التى تلحق دوله مهزومه بسيطرة دولة غازيه، فان مصر لم تخضع نتيجة لغزو الهكسوس لسيادة خارجية ، بل ان الهكسوس أنفسهم كانوا قوما مجهولى الأصل ليست لهم دولة خاصة بهم، وعندما جاءوا الى مصر حكموها من الداخل ولم يلحقوها بالخارج أى جعلوها مقرا لحكمهم وسيطرتهم ، وكان غزوهم أشبه بما يسمى فى العصر الحديث باستعمار الاستيطان كاحتلال اليهود لفلسطين أو سيطرة البيض على بعض البلاد الافريقية . وهذا النوع من أسوأ أنواع الاستعمار وأكثرها استغلالا.

وتعد فترة احتلال الهكسوس لمصر من أسود فترات التاريخ المصرى وأشدها غموضا ، بل قد تكون الأكثر سوادا وغموضا على الاطلاق ، ولذلك فان محاولة تاريخ هذه الفترة تقديرية وترجيحية الى حد كبير ، وليس أدل على ذلك من أن المؤرخ المصرى مانيتون يبالغ الى حد الخطأ الجسيم فى تقدير طول هذه الفترة ، فهو يزعم أنها تبلغ ١٥٦٦ سنة منها ٩٢٩ سنة حكم فيها الهكسوس منفردين أو مشتركين مع حكام طيبة ، فيقول مانيتون : ان الأسرة الثالثة عشرة ضمت ٦٠ ملكا حكموا ٤٥٣ سنة، وتلتها الأسرة الرابعة عشرة فى سخا بالدلتا وضمت ٧٦ ملكا حكموا ١٨٤ سنة ، وتلتها أسرة هكسوسية هى الخامسة عشرة وعدد ملوكها ستة، فالأسرة السادسة عشرة وعدد ملوكها ٣٢ ، ثم الأسرة السابعة عشرة ويقسمها مانيتون الى

أسرتين احداهما هكسوسية فى أواريس والأخرى مصرية فى طيبة وعدد ملوك كل منهما ٤٣ ملكا ٠

وسر الخطأ الذى وقع فيه مانيتون وجعله يبالغ الى هذا الحد فى تقدير طول الفترة وعدد الملوك الذين حكموا خلالها يرجع الى غموض تلك المرحلة التاريخية حتى بالنسبة للذين عاشوا فى وقت ليس بالبعيد عنها ، فقد عاش مانيتون فى القرن الثالث قبل الميلاد أى بعد انتهاء هذه الفترة بحوالى ١٢٠٠ عام فقط ، ومع ذلك لم يستطع أن يدرك حقائقها الزمنية ٠ والمؤكد أن السجلات المصرية القديمة التى يقال ان مانيتون رجع اليها فى كتابة تاريخه كانت غامضة كذلك ، والدليل على هذا أن ثبت الكرنك يذكر فقط أسماء ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة ويغفل تماما ملوك الأسرات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ٠ أما جدولا سقارة وأبيدوس فهما يهملان كذلك اهمالا تاما ذكر أى ملك بين الأسرتين ١٣ ، ١٧ ، والواضح أن سبب هذا الاهمال يرجع الى اعتبار القائمين على الحكم فى هذه المرحلة ليسوا ملوكا شرعيين من وجهة النظر المصرية ٠

والوثيقة المصرية الوحيدة التى تذكر ملوك فترة الانحلال الثانى التى نحن بصددها هى بردية تورين ، فقد أوردت بردية تورين بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة خمسة صفوف من الأسماء يمثل كل صف منها احدى الأسرات الخمس التى حكمت فى هذه الفترة ، ولكن ما أصاب البردية من التهشيم والتلف يعوق تحديد فترات الحكم ومعرفة

تسلسل الأسرات والملوك ، ويبدو أن مانيتـون اطلع على هذه البردية أو ما يشابهها وخدع فى كثرة عدد الأسماء الواردة فيها فوقع فى خطأ المبالغة فى طول الفترة على هذا النحو ، والواضح أن مصدر الخطـأ ان مانيتون اعتبر أن جميع هؤلاء الملوك قد حكموا متعاقبين ولمدد طويلة فى حين أن بعض الأسرات كانت متعـاصرة مثـل الأسرة ١٤ التى كانت تحكم فى سـخا فى نفس الوقت الذى تحـكم فيه الأسرة ١٣ فى منف ، وكذلك فان الأسرة ١٧ التى حكمت فى طيبة كانت تعاصر أسرة الهكسوس الحاكمة فى أواريس مما دعا مانيتون نفسه الى تقسيم الأسرة السابعة عشرة الى أسرتين هكسوسية ومصرية ، كمـا أن اضطراب الأحوال جعل الملوك يتعاقبون بسرعة فائقة ويحكمون مددا قصيرة ، فقد كان العصر يشهد ـ كما رأينا ، صراعا حادا بين الحكام الاقليميين الذين يدعى كل منهم الحق فى العرش ولا يكاد أحدهم يرتدى الشـارات الملكية حتى يخلع ويحل آخر محله .

والمؤرخون المحـدثون يتفقون على أن انهيار الأسرة الثانية عشرة حدث حوالى عام ١٧٨٥ ق . م . وأن قيام الأسرة الثامنة عشرة فى الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد أو على وجه التحديد فى عام ١٥٧٥ أى أن الفترة المتوسطة الثانية لا تعدو ٢١٠ عاما .

والمتفق عليه كذلك أن الهكسوس حكموا مصر ١٥٠ عاما انتهت بطردهم من البلاد على يد أحمس مؤسس الأسرة

الثامنة عشرة ، أما الستون عاما الأولى من بداية الفترة فقد استغرقتها الأسرة الثالثة عشرة وجزء من الأسرة الرابعة عشرة فى سخا وهى التى عاصرت الهكسوس فيما بعد .

ويمكن تلخيص ما سبق ، وتحديد الأسرات التى حكمت فى تلك الفترة على النحو التالى :

- الأسرة الثالثة عشرة : وهى أسرة مصرية عاصمتها منف ، وقد ورثت عرش الأسرة الثانية عشرة بعد انهيار الدولة الوسطى دون أن تحافظ على نقاء رمسها الملكى فكثر التنازع على العرش وضعفت البلاد وتفاقم الاقطاع وتهيأت مصر للغزو الأجنبى .
- الأسرة الرابعة عشرة : وهى أسرة اقطاعية مصرية حكمت فى سخا بغرب الدلتا وعاصرت أواخر الأسرة الثالثة عشرة وجزءا من حكم الهكسوس فى الشرق .
- الأسرة الخامسة عشرة : وهى أسرة هكسوسية خالصة حكمت فى أواريس والعاصمة القديمة منف وعدد ملوكها ستة ادعى بعضهم السيطرة على كل أجزاء البلاد شمالا وجنوبا .
- الأسرة السادسة عشرة : وهى هكسوسية أيضا رغم بدء اختلاطها بالدم المصرى ، وحكمت فى نفس المكان ، وتكاد لا تترك وراءها آثارا تذكر فيما عدا بعض أسماء متفرقة على الجعارين ، ويبدو أن هكسوس هذه الأسرة بدءوا يتكيفون بالحياة المصرية نتيجة لطول عهدهم فى الاستقرار بمصر وزواجهم مع المصريين ، ويبدو أنهم هجروا

سياسة العنف وانتهجوا سياسة الملاينة وحسن الجوار ٠

● الأسرة السابعة عشرة : وهى مصرية فى طيبه وتنتمى الى الأصل الملكى العريق لبيت طيبة الاقطاعى الذى نشأ منذ عصر الاقطاع الأول وظهر فيه ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين أقاموا الدولة الوسطى ٠ والظاهر أن ملوك الأسرة السابعة عشرة كانوا يحكمون فى أول الأمر برضا الهكسوس وتحت ولائهم ، ولكن لم تلبث الروح المصرية أن ظهرت فى أواخر أيام هذه الأسرة وشق ملوكها عصا الطاعة على الهكسوس وأضمروا تخليص البلاد منهم فظهرت سلسلة الملوك العظام الذين حرروا مصر ٠٠ سقننرع وكامس وأحمس ٠

ولكن من هم هؤلاء الهكسوس ؟ ومن أين جاءوا ؟

- ٥ -

حتى يمكن الاجابة على هذا السؤال الذى يعد من أكثر مسائل التاريخ غموضا يجب القاء نظرة على الأحوال السائدة فى منطقة الهلال الخصيب فى ذلك الوقت ٠

حوالى عام ٢٠٠٠ ق ٠ م استطاع حمورابى أن يجعل من بابل دولة عظمى تفرض سيطرتها على وادى دجلة والفرات وما حوله من المناطق فى الغرب والجنوب ولكن بابل لم تستمر فى قوتها بعد وفاة حمورابى بل عادت

كعادتها الى التمزق فى عهد خلفائه ، وانفرط التحالف البابلى القوى الى عدة ممالك صغيرة متنافسة ، وفى نفس الوقت بدأت بابل تواجـه خطرين هائلين فى الخارج هما الحيثيون ذوو الميول العسـكرية فى الشـمال الغربى والكاسيون رجال القبائل الجبلية فى الشمال الشرقى ٠

والحيثيون هم أجداد الأرمن الحاليين وكانوا من أصل هندى أوربى اختلط بالأشوريين الساميين وكانوا أقرب الى البربرية يعتمدون على القـوة العسـكرية المجردة ويستفيدون حضـاريا من الشـعوب التى يقهرونها فى تقدمهم نحو الجنـوب ، وامتزجت لغتهم الهندو أوربية الأصلية بلغة سكان الأناضول ونشأت عن هذا الامتزاج اللغة الحيثية التى تعلموا من الأشوريين كتابتها بالخط المسمارى على ألواح من الطين ، وكان مجلس آلهتهم يضم مختلف الآلهة المحلية التى يقـابلونها فى طريق توسعهم حتى كان يقال ان هناك « ألف اله للحيثيين » ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا فاتحين عقائديين وانما كانوا سياسيين وعسكريين فحسـب ، وكان كل مايهمهم أن لا تخـرج الشعوب التى يقهرونها عن طاعة الدولة الحيثية ٠

وكان الحيثيون فى أول الأمر ممزقين بين عدد من الممالك الصغيرة ثم توحدت هذه الممالك تحت زعامة ملوك « هاتوشـاش » التى أصبحت عاصـمة الدولة الحيثية وتعرف الآن باسم « بوغاز كوى » ٠

وقد بدأ الحيثيـون فى زمن خلفاء حمـورابى

يتوسعون جنوبا فأخضعوا جانبا من سوريا الشمالية واستولوا على جلجميش وحلب فأصبحت بابل هى الحد الشرقى لتوسعهم ، وأخيرا دخلوا بابل التى قاومت فيما يبدو سيطرتهم فدمروها عن بكرة أبيها ، ولم يحاولوا الاستقرار فيها أو ضمها الى دولتهم وانما اكتفوا بنهبها واسترقاق أبنائها ثم انسحبوا منها حاملين بين أسلابهم مردخ كبير الآلهة البابلية .

وترك هذا الغزو المدمر بابل ضعيفة فى وجه الكاسيين ، وهم فرع آخر من الهجرة الهندية الأوربية التى كانت تتغلغل جنوبا فى تلك الحقبة ، فنزل الكاسيون من تلالهم الشمالية الشرقية فى زاجوراس الى السهول البابلية الخصبة ، وظلوا يحكمون بابل عدة قرون تميزت بالغموض الشديد ، ولكن حقيقة واحدة كانت واضحة بما فيه الكفاية وهى أن الطبقة الحاكمة منهم كانت كالطبقة الحاكمة الحيثية تتكلم بلسان هندى أوربى كما تدل على ذلك أسماء ملوكهم وآلهتهم .

ولم يلبث أن نزل فرع ثالث من الهجرة الهندية الأوربية الى المنطقة السامية هم الخوريون الذين واصلوا تقدمهم جنوبا الى سهل خابور ، ووسط الفرات حيث كونوا مملكة ميتانى .

ولم يتوقف الزحف الآرى عند ذلك بل استمر الضغط الهندوأوربى من الشمال دافعا أمامه تدفقات

جديدة متعددة الأجناس الى الجنوب والغرب مما أدى الى قلقلة شديدة بين الشعوب والأقوام المستقرة فى الهلال الخصيب ·

وكان الهكسوس احدى هذه التدفقات ··· وقد أتوا فى الأصل من آسيا الصغرى وفتحوا سوريا وفلسطين كخطوة نحو هدفهم الحقيقى مصر ومما يدل على أنهم فرع من الهجرة الهندية الأوربية أنهم أدخلوا معهم الحصان والعربة وهما من مقومات الحضارة الآرية الشمالية كما كانوا يستخدمون أسلحة من البرنز والحديد مما يدل على أنهم كانوا على اتصال بمناجم أرمينية وطوروس من ناحية ، وبالمنطقة العشبية فى روسيا وسيبيريا الوسطى من ناحية أخرى ·

ولكن الهكسوس كعادة الاقوام الآرية لم يجعلوا من أنفسهم مجتمعا مغلقا بل فتحوا صفوفهم لكل من يسير فى ركابهم ويرضى بسيادتهم بشرط أن يحتفظوا هم بالسيادة والزعامة فكانوا أشبه بنواة متفوقة يلتف حولها التابعون ، واذا كانوا يحتفظون بشعارات سيادتهم الأصلية كأسماء الملوك والآلهة الا أنهم يعتمدون فيما عدا ذلك على كافة المظاهر الحضارية للأقوام التى يخضعونها والتى كانت بلا ريب أكثر منهم ثقافة ، ولذلك فانهم عندما استقروا بعض الوقت فى سوريا وفلسطين امتزجوا بالكنعانيين وأخذوا الكثير من لغتهم ومظاهر حضارتهم ثم تبعهم الكنعانيون وغيرهم من الأقوام المحلية فى جنوب فلسطين عندما جاءوا

الى مصر . وهذا ما أدى الى الخلط أحيانا بين الهكسوس والعبرانيين كما ذهب المؤرخ اليهودى يوسيفوس وأخذ عنه بعض المؤرخين القدماء والمحدثين .

فالهكسوس ليسوا عبرانيين ، ولكنهم امتزجوا الى حد ما بالكنعانيين الذين اختلط بهم فيما بعد العبرانيون مما أدى الى الخلط بين الأجناس الثلاثة .

والكنعانيون من أقدم الأقوام السامية التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية مهد الجنس السامى الى شاطىء البحر المتوسط فى زمن موغل فى القدم فان هيرودوت يذكر عن لسان علماء صور أنهم جاءوا الى فلسطين فى القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح ، وأثبتت الحفريات الحديثة أن تاريخ الهجرة السامية أبعد من ذلك بكثير ، فقد ظهر أن أصل بعض المدن الكنعانية مثل أريحا وبيسان ومجدو يعود الى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد .

وكان الكنعانيون ، ويسميهم الاغريق بالفينيقيين ، أمة ذات حضارة عظيمة تقوم على التجارة البرية والبحرية فقد بنوا المدن الكبيرة مثل طرابلس وبتريس وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور وسميرة وعسقلان ومجدو . وصنعوا السفن الضخمة التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط حاملة التجارة بين فينيقيا ومصر وقبرص وكريت وجزر اليونان ، وكانت بلادهم منذ القدم معبرا للغزوات من مصر واليها لأنها شريط ساحلى بين الصحراء فى الشرق والبحر فى الغرب .

وبعد منتصف الألف الثـــانى قبل الميلاد أى بعد أن استقر الكنعانيون فى بلادهم بحوالى ألف وخمسمائة عام ، وبعد احتلال الهكسوس لمصر بأكثر من مائتى عام تدفقت على بادية الشام هجرة ســامية جديدة هى العبرانيون ، وكان العبرانيون قبــل قدومهم الى أرض كنعان يعيشون حياة بدوية قبلية مع الأراميين على هامش شـبه الجزيرة العربية التى نزح منها هذان القومان فى الأصل . ولكن الآراميين اســتقروا بين دجلة والفرات وأنشأوا الحضارة الكلدانية الراقية ، أما العبرانيون فقد ساروا غربا الى أرض كنعان ، ولم تكن للعبرانيين حين نزلوا أرض كنعان ثقافة متبلورة ، بل كانت لغتهم الأصلية لا تختلف كثيرا عن اللغة الآرامية ويقــال انهم تعلموا لغتهم التى أصبحت تعرف بالعبرية من الكنعانيين أهل البلاد الأصليين .

نذكر ذلك للتدليل على أنه اذا كانت قد ظهرت فى مصر فى زمن الهكسوس ألفاظ يظن البعض أنها عبرية مثل أسماء يعقوب ونخمن وأياخنان وياناس ومثل سسمت ومركبوتى وعجلوتى ، فلا يصح أن يفسر ذلك كدليل على وجود العبرانيين فى مصر أو أنهم هم أنفسهم الهكسوس كما يقول يوسيفوس ، فهذه الألفاظ فى الأصل كنعانية وقد أخذها العبرانيون بعد ذلك بقرون حين نزلوا أرض كنعان، ومصدر الخطأ هنا أمران : الأول عدم تحديد التاريخ الذى جاء فيه العبرانيون الى أرض كنعان ، والثانى موت اللغة الكنعانية الأصلية وبقاء اللغة العبرية المشتقة منها .

- ٦ -

والذى نريد أن نخلص اليه أن غزو الهكسوس لمصر حدث قبل أن يترك أجداد العبرانيين باديتهم القبلية الأولى على هامش الجزيرة العربية ، وقبل أن يظهروا كقوة فعالة على مسرح الأحداث فى المنطقة ، والأرجح أن العبرانيين جاءوا الى مصر حوالى عام ١٤٣٠ ق ٠ م فى عهد امينوفيس الثانى بعد أن طردهم الأروميون من فلسطين ، وأنهم دخلوا مصر مسالمين طلبا للأمن والرزق ولم يدخلوها سادة فاتحين ٠ وكان ذلك بالتأكيد بعد طرد الهكسوس وقيام الأسرة الثامنة عشرة ، والروايات الدينية الاسرائيلية نفسها لا تذكر شيئا عن مجد سياسى حققه اليهود فى مصر فهى لا تذكر أنهم دخلوا هذه البلاد فاتحين أو شبه فاتحين ، أو أن أحدا منهم ادعى ملك مصر ربما باستثناء يوسف الى حد ما الذى وصل الى مكانة الرجل الثانى فى البلاد اذ جاء فى سفر التكوين (٤١ : ٤٠) عن لسان فرعون ليوسف « أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى الا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك » ٠

غير أنى أرجح أن يوسف بالذات جاء الى مصر فى زمن الهكسوس ، وليس هناك بالطبع دليل حاسم على هذا الزعم ، ولكن هناك على أى حال بعض القرائن القوية ، فقد عثر على جعارين من عهد الهكسوس تحمل اسم « يعقوب ـ ايل » ومن المحتمل أن يكون ذلك اشارة الى قبيلة يوسف التى نزلت مصر فالمعروف أنه صحبت مجىء الهكسوس

الى مصر هجرة متعددة الأجناس وليس من المستبعد أن يكون بين هؤلاء الأقـوام قبيلة يعقـــوب ، وقد حسبت السنوات التى عدها المؤرخ اليهودى يوسيفوس لأزمنـــة اليهود من موت اسحاق والد يعقـــوب وجد يوسف الى القرن الأول الميـــلادى الذى عاش فيه المؤرخ فكان عددها حوالى ١٨٥٠ سنة اذا أنقصنا منها القرن الاول الميـلادى لتحدد موت اسحاق حوالى عام ١٧٥٠ ق٠ م ٠ والمعروف أن الهكسوس جاءوا مصر حوالى عام ١٧٣٠ ق٠م٠ أى فى فترة حياة يعقوب ٠

وهذه النتيجة افتراضية ولا يقوم عليها دليل قاطع ، بل ان المراجع اليهودية نفســـها لا تقطع بها وان كانت ترجحها ٠ فمثلا دائرة المعارف اليهودية تقول انه لم يتأكد بصفة قاطعة ما اذا كانت قبيلة يعقوب الاسرائيلية قد جاءت الى مصر فى زمن الهكســـوس ، ولكن فترة الهـكسوس توافق تقريبا من الناحية الزمنية فترة الآباء الأجلاء فى العهد القديم كما أن الأحوال التى كانت سائدة فى مصر فى تلك الفترة تتفق مع الوصف الذى ورد لها فى التوراة٠ وتضيف دائرة المعارف اليهودية أنه ربما كان الملك الجديد الذى لم يكن يعرف يوسف (خروج ١ : ٨) يمثل الاسرة المصرية الخالصة التى عادت الى الحكم بعد طرد الهكسوس ، واذا أخذنا بهذا الرأى يكون يوسف قد جاء الى مصر فى أواخر عهد الهكسوس وأصبح وزيرا لأحد ملوك الهكسوس ويؤيد ذلك أن القرآن الكريم يلقب هـــذا الملك بالعزيز

ولا يسميه فرعونا وهو اللقب الذى يستخدمه القرآن الكريم للاشارة الى الملوك المصريين الخالصين مثل فرعون موسى .

وقد يكون هذا هو سبب الخلط بين الهكسوس واليهود لدى بعض المؤرخين وعلى رأسهم يوسيفوس ولكن هناك فرقا كبيرا بين قدوم أسرة عبرانية واحدة الى مصر حتى لو استطاع أحد أبنائها أن يبلغ شأوا رفيعا فى ظل السيطرة الأجنبية وبين مايزعمه يوسيفوس من أن الهكسوس هم أنفسهم اليهود وأنهم حكموا مصر كسادة وملوك .

والواقع أن أول اشارة الى العبرانيين فى الآثار المصرية القديمة وردت فى فترة تل العمارنة حينما كانت الرسائل ترد من حكام الأقاليم الأجنبية الخاضعة للنفوذ المصرى الى اخناتون تستنفره للدفاع عنها ضد أعداء مصر ، والمعروف أن فترة حكم امنحتب الرابع أو اخناتون تقع بين عامى ١٣٧٦ ـ ١٣٥٩ ق.م. أى بعد طرد الهكسوس من مصر بأكثر من قرنين ، ونجد من بين هؤلاء الأعداء الذين تذكرهم رسائل تل العمارنة اسم العبيرو Habiru ولاتزال مسألة تحديد من هم العبيرو محل نقاش ولكن الأرجح أنهم العبرانيون ، وكانوا يسمون فى الآثار المصرية الصميمة برو Prw ، وليس معنى ذلك أن العبيرو هم بالضبط العبرانيون أو الاسرائيليون بل ان شعب اسرائيل

الذى عرف فيما بعد هم أحفاد الامتزاج بين العبيرو والقبائل الآرامية .

أما اسم اسرائيل فلم يرد فى الآثار المصرية قبل عام ١٢٢٥ ق.م. حين قام الفرعون منفتاح خليفة رمسيس الثانى بحملاته فى فلسطين وعاد ليسجل انتصاراته فى لوحة منفتاح الشهيرة وفيها يقول :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما
وخربت تحينو
وهدأت أرض الحيثيين
وانتهبت كنعان وحلت بها كل الشرور
وخربت اسرائيل ولم يعد لأبنائها وجود »

- ٧ -

حفظ لنا الزمن وصفا بديعا لاحتلال الهكسوس لمصر ضمن الشذرات القليلة التى بقيت من تاريخ مانيتون . وقد وضع مانيتون كتابه فى تاريخ مصر بتكليف من بطليموس الثانى عام ٢٨٠ ق . م . ورد فيه على الأخطاء الجسيمة التى وقع فيها هيرودوت نتيجة لقصور علمه وسطحية علاقته بالمصريين . وكان مانيتون هو أول من قسم التاريخ المصرى الى ثلاثين أسرة وهو نفس التقسيم الذى نتبعه حتى الآن ، واستند مانيتون فى كتابه على السجلات المصرية القديمة كما يؤكد ذلك بنفسه ، ولكن تاريخ مانيتون ضاع للأسف فى حريق مكتبة الاسكندرية وبقيت منه شذرات

متفرقة اقتبسها ـ للاستشهاد ـ بعض المؤرخين الاغريق واليهود ومن أهمهم المؤرخ اليهودى يوسيفوس .

فقد وضع يوسيفوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى كتابا بعنوان « الرد على ابيون » أو « ضد ابيون » حاول فيه الدفاع عن بنى جلدته واثبات عراقتهم ومزاياهم ردا على المؤرخ الاغريقى أبيون الذى رمى اليهود بكل نقيصة ، وكان مما لجأ اليه يوسيفوس الاستشهاد بفقرات من تاريخ مانيتون عن الهكسوس زاعما أن الهكسوس هم أنفسهم اليهود ، وبالرغم من أن يوسيفوس كان مغرضا فى هذا الزعم الذى فنده كثير من الكتاب اللاحقين ومنهم ويليام ويستون أستاذ الرياضيات بجامعة كمبردج الذى ترجم أعمال يوسيفوس الكاملة الى الانجليزية عام ١٨٦٤ الا أن يوسيفوس قد أفاد من حيث لا يدرى بنقله هذه المقتبسات عن كتاب مانيتون الذى ضاع فيما بعد ، وأهم هذه المقتبسات فقرة يقول فيها :

« فى عهد تيماوس أصابتنا ، ولست أدرى لماذا ، نقمة من الاله ، فاندفع نحونا أقوام مجهولو الأصل جاءوا من المناطق الشرقية ، وكانوا من الجسارة الى الحد الذى جعلهم يقومون بغزو بلادنا ، وقد أخضعوا البلاد بسهولة دون أن نخوض معركة معهم ، وعندما تمكنوا من هزيمة حكامنا أقدموا بعد ذلك على احراق مدننا ، واتلاف معابد الآلهة ، وعاملوا جميع السكان بوحشية بالغة فذبحوا البعض واسترقوا أبناءهم وزوجاتهم ، ثم جعلوا واحدا

منهم ملكا على البلاد كان يدعى سالاتيس ، وأقام سالاتيس في ممفيس ، وأرغم الوجهين القبلي والبحري على دفع الجزية اليه ، وأقام الحاميات في الأماكن المناسبة ، وعمل بوجه خاص على تحصين المناطق الشرقية لأنه كان يخشى أن يطمع الاشوريون في هذه المملكه ويقدموا على غزوها ، ووجد في اقليم سايت مدينة مناسبة تماما لغرضه تقع على الفرع البوباسطى (للنيل) اسمها أواريس فأعاد بناءها وحصنها جيدا بما بنى حولها من الأسوار وبما وضعه فيها من حامية قوية بلغت مائتين وأربعين ألفا من الرجال المسلحين ، وكان سالاتيس يذهب الى هناك في فصل الصيف ليشرف على جمع محصوله ودفع مرتبات جنوده من ناحية ، وليجرى « مناورات » لرجاله المسلحين ليرهب أعداءه من ناحية أخرى • وبعد أن حكم هذا الرجل ١٣ عاما جاء بعده بيون وحكم ٤٤ عاما ، ثم اباشناس وحكم ٣٦ عاما وسبعة أشهر ، وبعده أبوفيس وحكم ٦١ عاما • وبعده جونياس وحكم ٥٠ عاما وشهرا واحدا وبعد هؤلاء جميعا حكم أسيس ٤٩ عاما وشهرين ، وكان هؤلاء الملوك الستة هم أول حكام من الرعاة وكانوا طوال حكمهم يحاربون المصريين ، ويودون أن يجتثوهم من جذورهم » •

ويضيف يوسيفوس نقلا عن مانيتون في وصف طرد الهكسوس من مصر :

« ان ملوك طيبة وغيرهم من الملوك في مصر العليا قاموا بثورة ضد الرعاة ، ونشبت حرب طويلة ورهيبة

بين الطـــرفين ، وجـــاء الى الحكـــم ملك مصرى يدعى اليسفراجموتوسيس هزم الرعاه وطردهم من مختلف انحاء مصر والزمهم حصونهم فى اواريس ، ولكن توموسيس بن اليسفراجموتوسيس حاول بعـــد ذلك اخضاعهم بالقوة فحاصرهم باربعمائه وثمـانين ألف رجـــل حاصروا ذلك المكان ، ولكنه بالرغم من رغبته فى الاستيلاء على حصونهم بالقوة توصلوا معه الى اتفاق بأن يغادروا مصر ويرحلوا عنها دون ان يصيبهم بضرر ما ، وبعد ان تم هذا الاتفاق رحلوا بكامل عائلاتهم واعـــدادهم وكانوا لا يقلون عن مائتين وأربعين ألفـــا خرجوا من مصر عبر المتاهـــات الى سوريا » .

ويذكر يوسيفوس نقلا عن مانيتون أيضا أن كلمـــة هكسوس مكونة من مقطعين هما « هيك » ومعناه فى اللغة المصرية المقدسة ملك ، و «سوس» ومعناه فى اللغة المصرية الدارجة راع ، فالكلمة اذن معناها الملوك الرعاة .

ولكن يبدو أن مانيتون قد أخطأ فى تفسير الاسم على هذا النحو ، اذ يقول برستيد : ان كلمة « سوس » لم ترد فى أى أثر مصرى قديم ، ولكن كلمة « هيك » أو « هك » معناها فعلا ملك كما ذهب مانيتون ، فمن أين جـاء اذن المقطع « سوس » ؟ يقول برستيد ان خيـــان أحد ملوك الهكسوس كان يخلع على نفسه لقب « هيك » فى آثاره ويضيف اليه كلمة أخرى معناها « البلاد » يمكن بتحريف لغوى يسير أن تنطق « سوس » ، وعلى ذلك فان كلمـــة

هكسوس معناها فى رأى برستيد « ملك البلاد » ٠

وهذا رأى اجتهادى ، وفى الاجتهاد مجـــال للتأويل ، فيمكننا مثلا أن نقول انه لما كان اسم الحصان فى اللغـة المصرية القديمة « سسمت » وفى الكنعانية « سوس » فان كلمة هكسوس معناها « ملوك الخيل » أو الملوك الفرسان، ويؤيد ذلك أنهم أول من أدخلوا الحصان الى مصر ٠

ولكن معظم المؤرخين يرون أن كلمة هكسوس تحـوير لكلمة « حقا خاسوت » وهو لقب مصرى قديم كان يطلق على رؤساء القبائل الآسيوية قبل دخول الهكسوس مصر ، والدليل على ذلك أن زعيم العامو المسمى ابشا أو ابشاى الذى زار مصر فى زمن الأسرة الثانية عشرة كان يلقب « حقا خاسوت » أى زعيم الجبل أو زعيم البلد الأجنبى ، ونفس اللقب مستعمل أيضا فى قصة سنوحى التى ترجع الى نفس الفترة ، فلما دخل هؤلاء الغزاة الى مصر أطلق المصريون على رؤسائهم هذا اللقب ثم أصبح بعد ذلك علما عليهم جميعا ، وعلى ذلك فان هذه الكلمة تعتبر لقبـــا وليست اسما لجنس قائم بذاته ٠

وتشير بعض الآثار الى أن الهكسوس كانوا يعبدون الاله المصرى « ست » الذى يمثل الشر والعاصفة والصحراء والبلاد الاجنبية ٠ والمؤكد أنهم اعتنقوا هذه العقيدة أثناء اقامتهم فى مصر تأثرا بثقافتها ٠ أما الههم الأصلى فهـــو « تشوب » اله العاصـــفة والرعد والحرب لدى الحيثيين

والميتانيين وغيرهم من الشعوب الأناضولية القديمة ،وكانوا يسمونه أيضا « سوتخ » وهو شديد الشبه بالاله المصرى ست اسما وموضوعا ٠

ويبدو أن ما دفع الهكسوس الى اعتناق ديانة ست امران : الأول هو ذلك التشابه الكبير بينه وبين الههم الأصلى كشوب اذ يرمز الاثنان الى الصحراء والقحط والحرب أى الى بيئة الهكسوس ومناخهم الفكرى ، والثانى أن مجرد فرض ست كاله رسمى وحيد فى مصر يعد قهرا للمصريين وانتصارا معنويا عليهم ، فالاله ست هو عدو أوزوريس اله الخصب والنماء والعالم الآخر لدى المصريين ، وقد انتشرت ديانته بصفة خاصة فى الدولة الوسطى وأصبحت ديانة الشعب جميعا ولا سيما الفقراء من الناس لأن أوزوريس لم يكن يتطلب مثل رع مظاهر الثراء والترف المادى التى تحيط بالمتوفى ، وانتشار ديانة أوزوريس فى هذه الفترة كان أثرا غير مباشر للثورة الشعبية الكبرى التى قامت فى أواخر الدولة القديمة وأسفرت عن اكتساب الشعب حق الخلود ، وأصبح للبسطاء من الناس رب يرعاهم تماما كالعظماء والأغنياء الذين يشملهم رع برعايته، وكان هناك صراع واضح بين رع وأوزوريس تشير اليه بعض أجزاء أسطورة ايزيس وأوزوريس فى الوقت الذى كان فيه هناك شبه تفاهم بل وتحالف بين ست ورع ٠ وقد لا ندرك الآن أهمية هذه الخلافات الدينية لدى المصريين ولكنها كانت فى زمنها خطيرة محتدمة ، وكانت محورا

رئيسيا للصراع السياسى والاجتماعى .

فاذا جاء الآن عدو غاز وأطاح بعرش أوزوريس ورفع ست الى المقام الأعلى فان ذلك فى حد ذاته ينطوى على اذلال مهين للشعب ، ويعد ضربة قاسية لمراكز الحضارة المصرية مثل طيبة التى يعبد فيها آمون ومنف التى يعبد فيها بتاح، وأون التى يعبد فيها رع .

وكما يتضح من أقوال مانيتون وبعض الآثار المصرية القديمة نعرف أن الهكسوس عاملوا المصريين بقسوة بالغة فى المرحلة الأولى على الأقل من احتلالهم للبلاد ، فقد كان المصريون فى ذلك العهد وبالرغم من ضعفهم السياسى والعسكرى شعبا عريقا فى الحضارة شديد الاحساس بامتيازه وتفرده ، وكانوا لا يخفون احتقارهم بشأن تلك الاجناس الغازية البربرية التى كانت الى عهد قريب تقبع ذليلة على حدود بلادهم أو تلتمس العيش على فتات خيراتها وكان هؤلاء الغزاة يدركون كذلك بلا ريب هذا الفارق الحضارى الكبير بينهم وبين المصريين ويضمرون لهم الحسد والضغينة ، ولذلك فقد ساموهم العذاب ودمروا ما وقعت عليه أيديهم من منجزات الحضارة المصرية كالمعابد والتماثيل والمنشآت العامة للقضاء على مظاهر المدنية المصرية المتفردة، والمؤكد أن احتلال الهكسوس لمصر كان من أهم العوامل التى انتقصت من كنوز مصر الأثرية .

وقد أشارت الملكة حتشبسوت فى الأسرة الثامنة عشرة الى هذا التخريب الذى أحدثه الهكسوس فتقول على بعض

آثارها : « لقـد أصلحت ما تخرب ، وأقمت ما كان قد أصبح حطاما عندما كان الآسيويون يقيمون فى أواريس وكان يقيم بينهم الأفاقون الذين يحطمون ما كان قائما » •

ولكن يبدو أن الهكسوس لم يستمروا على هذا العداء للمصريين حتى النهاية ، والأرجح أنهم حاولوا بعـد أن استقروا ودانت لهم البلاد أن يكسبوا ود المصريين ويتكيفوا بالحضارة المصرية فتبنوا ثقافة البلاد وطريقتها فى الكتابة بل عبدوا رع وكانوا يقرنون اسمه بألقابهم مثـل عافنن رع الذى هو أيوفيس ، والسـبب فى ذلك احتكاكهم بالمصريين فى كافة شئون الحياة ، وزواجهـم من المصريات مما جعل الجيل الثانى والثالث منهم ينشأ متمصرا •

غير أن المصريين لم ينسوا أبدا أن الهكسوس غزاة يجب الخلاص من نيرهم حتى تهنأ الحياة فى الوادى وتعود الى طيب مجراها ، ولم يخدعوا بمظاهر التودد التى كان يبديها الهكسوس نحوهم ، وعندما سنحت الفرصـة لم يترددوا فى الثورة على حكامهم الأجانب فأشـعلوا بذلك أول حرب تحريرية فى التاريخ •

القسم الثانى

التحرير

- ١ -

لعبت طيبة دورا هاما فى تاريخ مصر القديمة ، فقد كانت دائما قلبا خافقا بالروح الوطنية . ومنذ أقدم العصور كانت طيبة عاصمة للاقليم الرابع من أقاليم الصعيد ، ونشأ فى طيبة منذ الأسرة السادسة بيت حاكم شأنها فى ذلك شأن بقية الأقاليم الأخرى التى دخلت مرحلة الاقطاع . وكان حكام طيبة يتنازعون على السيادة تارة مع جيرانهم فى أرمنت بالجنوب وأخرى مع جيرانهم فى قفط بالشمال الى أن انتهت أيام الأسرتين السابعة والثامنة فى منف ونشأت الأسرة التاسعة فالعاشرة فى أهناسيا .

وبدأت طيبة تنافس اهناسيا على السيادة وقامت حروب كثيرة بين ملوك اهناسيا وأمراء طيبة كان الاهناسيون ينتصرون فيها فى أول الأمر بفضل مساعدة أمراء أسيوط لهم ، ولكن الصراع انتهى لصالح طيبة فى آخر الأمر فقد تزعمت اتحادا من مقاطعات الجنوب وتمكنت من القضاء على الأسرة العاشرة الاهناسية واعتلى عرش

البلاد أمير من طيبة ، وضع التاجين على رأسه وهو الملك منتوحتب الثانى (انيوتف) وأصبحت طيبة عاصمة للوجهين يتدفق عليها الخراج فيزيد من ثرائها وقوتها . وعكف منتوحتب وخلفاؤه على توسيعها وتجميلها بالحدائق والمعابد التى يقدس فيها اله طيبة المحلى آمون .

وواصل امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة سياسة الاهتمام بطيبة وآمون رغم أنه نقل عاصمة حكمه الى منف التى تبعد ٥٠٠ كيلومتر شمالى طيبة نظرا لموقعها المتوسط بين الوجهين .

وعندما جاء الهكسوس خضعت طيبة لهذه المحنة شأنها فى ذلك شأن كل العواصم الأخرى ، وكانت تدفع الضرائب الى أواريس ويحكم أمراؤها بموافقة الهكسوس ، ولكنها لم تفقد شخصيتها بل استطاعت المحافظة على الروح الوطنية المصرية والتراث المصرى الأصيل ، وساعدها على ذلك انعزالها وبعدها عن المؤثرات الجديدة فى الشمال ، فنجد أن أمراء طيبة عملوا طوال عهد الهكسوس على المحافظة على العادات التقليدية المصرية رغم ضعف امكانياتهم ، اذ كانت لا تصلهم أخشاب من بيبلوس ولا أبنوس أو عاج من السودان ، بل ولا أحجار من محاجر أسوان ووادى الحمامات ، فاعتمد الطيبيون على امكانياتهم المحلية عملا بمبدأ الاكتفاء الذاتى فكانوا يقيمون الأهرام الصغيرة من الطوب « النى » ويصنعون التوابيت الريشية على هيئة الجسم البشرى من أخشاب أشجار الجميز لا الأحجار ، كما

عملوا على المحافظة على الأسلوب المصرى فى الفن ، والمحافظة على التراث اللغوى والأدبى ، بل شـهد عهدهم رغم اضمحلاله السياسى ازدهارا فى الأدب والمعرفة ، اذ عكف كهان طيبة وكتبتها على نسخ روائع الأعمال الأدبية القديمة والواقع أن معظم ما نعرفه من هذه الأعمال القديمة انما كتب فى طيبة فى عهد الهكسوس .

وأهم من ذلك كله ان استطاعت طيبـة أن تحتفظ بجذوة الروح الوطنية ، وفى أواخر عهد الهكسوس وعندما بدأت قبضتهم تخف على البلاد بدأ أمراء طيبـة يشـعرون بقوتهم ويعقدون المحالفات مع جيرانهم فى الشمال والجنوب ولكنهم ظلوا يؤدون الجزية لملوك الهكسوس وشيئا فشيئا بدأوا يتلكأون فى أدائها ، ويطرحون عن أنفسـهم مظاهر الولاء للهكسوس بل ويعتبرون أنفسهم ملوكا على مصر كلها ويذكون الروح الوطنية فى الشعب .

ولا نكاد نعرف شيئا عن الأمراء الأول فى الأسرة السابعة عشرة الطيبية سوى أسمائهم المنقوشة على الجعارين أو بعض الآثار الضئيلة التى خلفوها ، ولكن من أبرز هؤلاء الأمراء « نب ــ خبرو ــ رع » الذى ترك وثيقة هامة تدل على روح العصر وسياسته وتلك هى مرسوم أصدره يلعن فيه أحد الاشخاص ويحكم بموته سياسيا ومدنيـا لارتكابه فيمـا يبدو جريمة الخيانة العظمى أو الاتصال بالأعداء ، اذ يذكر المرسوم أن الملك نب خبرو رع أمر بتشكيل لجنة للتحقيق فى معبد مين بعد أن « جاء موظفـو معبـد مين الى جلالتى

ليذكروا أن أمرا سيئا حدث فى هذا المعبد ألا وهو ايواء تيتى بن منحتب ـ على اسمه اللعنة ـ للأعداء » ويضيف المرسوم قائلا : « ألا فليطرد ، وليلق به أرضا خارج معبد أبى مين ، ليخلع من وظيفته فى المعبد ولتحرم على ابنه ووريث وريثه .. ليطردوا جميعا ويلقوا على الأرض ... ليستولى على خبزه ولحومه المقدسة ، ألا لا يذكر اسمه فى هذا المعبد جزاء وفاقا لمثله فى استعدائه الخصم على الآلهة .. الخ » .

وجاء بعد نب خبرو رع ابنه سانخت ان رع تاعا الأول أو الأكبر كما يلقب عادة وهو الجد المباشر لأبطال التحرير ، وقد تزوج هذا الملك فتاة من عامة الشعب هى تيتى شرى التى لعبت دورا كبيرا فى بعث الروح الوطنية ، وعاشت حتى أدركت الأسرة الثامنة عشرة التى أسسها حفيدها البطل أحمس ، ورزق تاعا الأكبر وزوجته تيتى شرى بابن ذكر هو سقنن رع أو تاعا الثانى الملقب بالشجاع وفتاة هى اعح حتب وتزوج سقنن رع من أخته أعح حتب كعادة بعض البيوت العريقة فى مصر الفرعونية وأنجبا كامس وأحمس بطلى التحرير .

ولنترك بصفة مؤقتة ذكور هذه الأسرة لنتحدث قليلا عن اناثها ، فالظاهرة الجديرة بالتسجيل أن المرأة المصرية لعبت دورا بارزا فى هذه المرحلة الحرجة وساهمت ايجابيا فى تحرير البلاد ، فقد كانت الام الشجاعة التى تقدم أبناءها الى المعركة المقدسة ، هكذا فعلت الملكة تيتى شرى وفقدت بالفعل ابنها سقنن رع فى المعركة ، وهكذا فعلت

ابنتها اياح حتب زوجة سقنن رع فقدمت ولديها كامس وأحمس ، وعاشت هى الاخرى مبجلة عمرا مديدا ، حتى يقال انها عاصرت امنحتب الأول بل ولحقت عهد تحتمس الأول ، وقد عثر لها على لوحة فى الكرنك تشيد بما فعلته من أذكاء الروح الوطنية بين الجند ووضع حد للثورات ، وقد منحت هذه السيدة العظيمة لقب ربة الجزائر ، وهو لقب منحها لها سكان جزر البحر المتوسط اخلاصا واعجابا ويبدو أن هذه الجزر كانت قد تحالفت مع مصر ضد الهكسوس ، وعثر فى كفنها مع الحلى والجعارين على بلطة ذهبية وخنجر مما يدل على علاقتها بصناعة الحرب والجهاد ٠

ثم تنازلت أعح حتب عن مركز السيدة الأولى لنفرتارى زوجة ابنها أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة فيما بعد ، وكانت نفرتارى كشأن سيدات هذه الأسرة ، امرأة عظيمة تشارك زوجها فى الكفاح وتظهر الى جانبه فى المحافل العامة ، وهناك مشكلة تتعلق بشخصيتها فرأى يقول انها كانت أخت كامس وزوجته ثم تزوجت أخاها الآخر أحمس بعد وفاة كامس ، ورأى يقول انها ابنة كامس ثم تزوجت من عمها أحمس ٠

- ٢ -

هناك لحسن الحظ وثيقة هامة نجت من الزمن لتحكى لنا الفصل الأول من حرب التحرير ضد الهكسوس ، هذه الوثيقة عبارة عن بردية تشير الى نزاع حدث بين أبوفيس

ملك الهكسوس المقيم فى أواريس وسقنن رع أمير طيبة ، وقد كتب هذه البردية أحد تلامذة المدارس فى الأسرة التاسعة عشرة أى بعد طرد الهكسوس بمئات السنين ، ولكنها كانت فيما يبدو قصةشعبية مألوفة تتناقلها الأجيال وجاء هذا التلميذ ويدعى بيتاعور فقام بنسخها كتمرين له على الكتابة ، وضاع النص الأصلى للقصة ، وبقيت تلك البردية التى تحوى تمرين بيتاعور ، وهى تعرف الآن بورقة ساليه نسبة الى العالم الذى اكتشفها وحل رموزها ، ولكن لسوء الحظ لم يتم بيتاعور كتابة القصة ، وانما تركها مبتورة فى مرحلة شائقة ، فما كان فى حاجة الى اكمالها وهو الذى لم يقصد بها سوى التدريب ، وكانت النتيجة أن حرم البشرية معرفة نهاية القصة وتركنا معلقين كمن تنتزع منه قصة مسلسلة بعد نهاية احدى حلقاتها المشوقة .

وتبدأ القصة بوصف حالة البلاد فى ذلك الوقت فنعرف ان أبوبى (أبوفيس ملك الهكسوس) كان يحكم فى أواريس بالدلتا ، وكانت الفاقة والبؤس يخيمان على مدينة الآسيويين رغم أن البلاد كلها شمالا وجنوبا كانت تقدم لهم الجزية مما يدل على سوء الأحوال التى وصلت اليها البلاد فى عهد الهكسوس ، فلم يكن ملوك الهكسوس ينفقون الأموال على تحسين حالة الرعايا وانما يستأثرون بها لعشيرتهم وقواتهم ، ونعرف أيضا أن أبوفيس هذا كان يتنكر لآلهة البلاد ، ويجعل من سوتخ كبيرا للآلهة يقدم له وحده الذبائح والقرابين .

وتمضى القصة فتقول : « ان الملك أبوفيس بعث ذات يوم برسالة يتحدى فيها سقنن رع أمير مدينة الجنوب (طيبة) فأوفد اليه رسولا يحمل تلك الرسالة . ولما مثل الرسول بين يدى أمير مدينة الجنوب ، قال له الأمير : لماذا جئت الى مدينة الجنوب ؟ ولم قمت بهذه الرحلة حتى مثلت بين يدى ؟ فأجابه الرسول : انه أميرى أبوبى الذى أرسلنى اليك لأقول لك : اخل البركة الواقعة شرقى المدينة من أفراس البحر لانها تحول بيننا وبين النوم ليلا ونهارا ولأن ضوضاءها تملأ آذان سكان المدينة » (١) .

فما معنى هذا الطلب الغريب ؟ ان أواريس تبعد عن طيبة مئات الاميال ، ولا يعقل أن تصل أصوات أفراس البحر فى بركة طيبة الى أسماع المقيمين فى أواريس ، فمن الواضح اذن أن الأمر لا يعدو « جر شكل » وهذا المنطق يذكرنا بقصة الذئب والحمل فكما يستحيل أن يجرى الماء الواطى فى العالى كذلك يستحيل أن يسمع سكان أواريس أصوات أفراس البحر التى فى طيبة .

ويقول جوستاف لوفيفر نقلا عن الشاعر الفرنسى لافونتين ان ملوك الأزمنة الغابرة كانوا يتبادلون الأحاجى والألغاز حول مختلف الأمور فاذا لم يستطع من توجه اليه هذه الأسئلة أن يجيب عليها اجابة صحيحة فانه يدفع

---

(١) اعتمدت فى دراسة القصة على ترجمة الدكتور على حافظ للنص الفرنسى ترجمة جوستاف لوفيفر ـ روايات وقصص من العصر الفرعونى ـ الألف كتاب .

غرامة أو توقع عليه عقوبة ما ، ومن أمثلة ذلك التحدى الذى وجهه الفرعون نكتانيبو الى الملك ليسيروس يطلب فيه ارسال بعض المهندسين الذين يعرفون كيف يقيمون برجا فى الهواء ، وكذلك كان أبو الهول الاغريقى يلقى على مسامع كل من يلقاه لغزا عن الانسان فاذا لم يستطع حله يصرعه أبو الهول على الفور وعندما حله أوديب هلك أبو الهول ٠

وعلى ذلك فان رسالة ابوفيس الى الأمير الصعيدى كانت من قبيل هذه الألغاز التى تنطوى على التحدى ، ولكنها كانت لغزا واضحا الى حد بعيد فهو يكاد أن يقول صراحة : ان المشاعر الوطنية التى ظهرت فى طيبة تقض مضاجع السادة الهكسوس ، وعليك أيها الأمير أن تخمد هذه المشاعر فورا أو فلتتحمل النتائج ٠

ونعود مرة أخرى الى نص القصة لنعرف وقع هذا التحدى على سقنن رع ٠ تقول القصة ان الدهشة عقدت لسان أمير الجنوب وقتا غير قصير حتى انه عجز عن الرد على الرسول فى حينه ثم قال له فى النهاية : « هل سمع سيدك حقيقة وهو فى تلك البلاد النائية عن بركة أفراس البحر الواقعة شرقى مدينة الجنوب ؟ فأجابه الرسول : فكر فيما بعثنى من أجله مولاى ! »

ونعرف من سياق القصة بعد ذلك أن الأمير سقنن رع تمالك أعصابه وتظاهر بالاقتناع ، فأمر بأن تكرم وفادة رسول الملك أبوفيس ، وأن تقدم له كل الاشياء الطيبة من لحوم وفطائر ثم طلب منه أن يعود الى سيده ويبلغه أن سقنن رع سوف يستجيب لمطلبه ٠

ونفهم من ذلك أن سقنن رع انما أراد أن يتدبر الأمر ويعالجه بالروية والحكمة اذ نراه بعد انصراف رسول الملك أبوفيس يستدعى كبار مستشاريه ويطلعهم على ما حدث ويطلب منهم المشورة ، ويقول النص : انهم وجموا جميعا فترة غير قصيرة وعجزوا عن اجابته بخير أو شر . وهنا ينقطع فجأة مخطوط بيتاعور أو ورقة ساليه ، ولم يعثر على أية وثيقة أخرى يمكن أن نعرف منها بقية القصة .

ولكن الأمر لا يخرج عن أحد احتمالين : اما أن يكون سقنن رع قد آثر السلامة حتى النهاية واستجاب لمطالب أبوفيس فى القضاء على المشاعر الوطنية التى يشبهها بضوضاء أفراس البحر ، واما أن يكون هدفه من هذا الرد المسالم كسب الوقت ريثما يستعد لملاقاة أبوفيس وتلقينه ردا عمليا على تحديه .

والاحتمال الأول مرفوض لأنه لو كان صحيحا لما أصبح للقصة معنى من أساسها ، بل لكانت قصة معادية للمصريين ، وبالتالى لم تكن لتعيها حافظة الأجيال المصرية، ويبدو أن الغرض الثانى هو الذى تحقق فعلا وأن سقنن رع أعلن الحرب على أبوفيس ، ويكفى أنه قدم دليلا على صحة هذا الرأى بدمه فالمؤكد أن سقنن رع مات مقتولا فى معركة، وكل الشواهد تشير الى أن هذه المعركة كانت ضد الهكسوس ، ويصف اليوت سميث مصرع سقنن رع من واقع الجراح الموجودة فى رأسه على النحو التالى :

« انه كان فريسة هجمة غادرة قام بها عدوان أو أكثر ، فقد أخذ على غرة عندما كان نائما فى فراشه أو

أنهم تسللوا من خلفه وطعنوه بخنجر فى عنقه ، ولقد كانت الضربة مفاجئة فلم يقو على رفع يده ليدرأ عن نفسه ضرباتهم التى انهالت بالبلط والسيوف والعصى على وجهه فهشمته وهو ملقى طريحا . وتدل شواهد الأحوال على أن تجهيز الجثة للدفن كان على عجل ، وان عملية التحنيط تمت بسرعة فائقة فجاءت فى غاية الاختصار ، ولم تبذل أية محاولة لوضع الجسم فى موضعه المستقيم الطبيعى . اذ قد ترك منكمشا كما كان طريحا وهو فى حالة النزع ، فكان الرأس ملقى للخلف ومثنيا نحو اليسار ، ولسانه بارز من فمه يضغط عليه بأسنانه ألما وتوجعا ولم يمسح سائل مخه الذى كان يجرى على جبينه بسبب الجروح التى أصابت رأسه ، وكانت ساقاه منبسطتين بعض الشىء ، ويداه وذراعاه منكمشتين كما كانتا عندما لفظ روحه ،وقد أزيلت أحشاؤه من فتحة عملت فى بطنه وقد حفظ الجسم بوضع نشارة معطرة عليه وحسب ، والواقع أن الجسم فى حالته الراهنة يشبه مومية قبطية قد يبست وثقبها الدود » .

ويقول سليم حسن : لقد ظن مسبيرو وتبعه فى ظنه اليوت سميث ان سقنن رع قتل بعيدا عن طيبة والأرجح أنه مات فى ساحة القتال ، وأن تحنيطه تم على عجل فى المكان الذى لقى فيه مصرعه .

وهكذا كان سقنن رع الذى مات فى شرخ الشباب اذ تدل جثته على أنه فى حدود الثلاثين أول شهيد معروف تقدمه مصر فى حربها المقدسة ضد الهكسوس .

- ٣ -

بعد مصرع سقنن رع تبرز شخصية ابنه كامس الذى يعد آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وقد واصل حرب التحرير ضد الهكسوس ممهدا الطريق أمام شقيقه الأصغر الذى تولى طردهم نهائيا من البلاد .

ولدينا لحسن الحظ نص كامل يصور جهاد الملك كامس ويعطى صورة دقيقة لأفكاره وكفاحه والأحداث التى واجهته وقد عثر كارنارفون على أجزاء من هذا النص عام ١٩١٢ ثم تم العثور على أجزاء أخرى فى لوحة بالكرنك اكتشفت عام ١٩٣٥ ، وأخيرا عثر على نص كامل لحرب التحرير فى عهدالملك كامس عام١٩٥٤ ، ويكفى استعراض هذا النص لنقف على فكرة واضحة عن الأحداث .

يبدأ النص بذكر اجتماع يعقده الملك كامس لمستشاريه فى القصر الملكى بطيبة حيث يشكو لهم ما يلقاه من ضيق وهم نتيجة وجود أعداء ينافسونه فى الشمال والجنوب ، فهذا حاكم آسيوى فى أواريس وآخر نوبى فى كوش كل منهما استولى على جزء من مصر بينما يجلس هو فى طيبة منتقص السيادة « اننى أحب أن أعرف ما الذى حققته قوتى ؟ » ويضيف قائلا : « سوف أكافحه وأبقر بطنه .. اننى أرغب فى تحرير مصر وأقضى على الآسيويين » (١) .

---

(١) اعتمدت فى دراسة هذه الوثيقة على ترجمة الدكتور عبد الحميد زايد « مصر الخالدة » ص ٤٨٦ وما بعدها .

ويستطرد النص موضحا أن رجال الرأى والمشورة كانوا ضد فكرة الحرب،وكانوا يميلون الى المهادنة والمساومة ما دامت خيراتهم تأتيهم غير منقوصة « انظر ان « المناطق » حتى « القوصية » أصبحت موالية للآسيويين ، اننا فى هدوء بمنطقتنا من مصر ، ان « الفنتين » قوية والقسم الأوسط معنا حتى « القوصية » ان الناس يقومون بزراعة أحسن أراضيهم لنا ، ان ماشيتنا ترعى فى مستنقعات البردى ، ويرسل القمح والشعير علفا لخنازيرنا ، ان ماشيتنا لم تسرق » .

واختلف المؤرخون فى تفسير هذا التخاذل من جانب مجلس الاشراف الذى يضم رجال الرأى والمشورة ، وفسره البعض بأنه محاولة من كاتب الوثيقة لتبرير ارجاء كامس محاربة الأعداء وقال آخرون : بل ان الأشراف أرادوا أن يتخذوا الحيطة حتى يستعدوا استعدادا كافيا ، ولكن ليس هناك ما يدعو الى مثل هذه التفسيرات ما دام النص واضحا ، فنحن هنا أمام موقف متخاذل من رجال أبرز ما يميزهم الثراء والوجاهة وهم لا يخفون أن ما يهمهم هو أراضيهم وماشيتهم وأموالهم ، أفلا يحق لنا اذن أن نستنتج من ذلك أن طبقة الأثرياء كانت فى ذلك الوقت ـ وكما هى فى كل زمان ومكان ـ طبقة محافظة غير ثورية وان مايهمها فى المحل الأول مصلحتها الاقتصادية لا مصلحة الوطن ؟ .

والدليل على ذلك أن النص يمضى فيسجل عدم رضا كامس عن رأى الأشراف بل يعلن عزمه على محاربة

العدو فيقول « سأبحر شمالا بقوة لأقضى على الآسيويين وذلك بأمر آمون صادق المشورة » . فهو يرفض مشورتهم ويحبذ دونها مشورة آمون رب طيبة الذى يلهمه المضى فى طريق الكفاح ، ثم يمضى فى وصف مسيرته لملاقاة العدو قائلا : « ان جيشى أمامى مثل الريح المتقدة » ورغم عدم وضوح النص فمن الممكن أن يفهم منه أن كامس فرض حصارا على نفروسى (بشمال الاشمونين) متحينا الفرصة للانقضاض عليهم .

وسرعان ما تسنح الفرصة فيقول كامس : « لقد قضيت الليل فى سفينتى وقلبى مسرور ، ولما أضاءت الدنيا انقضضت عليه فمحوت حصونه ، وقتلت رجاله ، وأخذت حريمه .. وكان عساكرى كالأسود ومعهم الغنائم والعبيد والماشية واللبن والزبد والعسل ، وقد تقاسموها فيما بينهم وكان اقليم نفروسى على وشك السقوط » .

ثم يخاطب ملك الهكسوس قائلا : « ان قلبك قد انحل .. الذى تعود أن يقول اننى ملك ولا يوجد من يعادلنى من الأشمونين حتى أواريس .. اننى قد قضيت على مدنهم ، وحرقت أمكنتهم ، فأضحت بقايا حمرا الى الأبد ، وذلك انتقاما من الخسارة التى سببوها لمصر » .

وبعد ذلك نجد النص يتحدث عن تطور خطير مفاجىء .. ان ملك الهكسوس يتآمر مع ملك كوش بالسودان على تطويق المصريين، تلك هى وحدة المصلحة بين الحكام الدخلاء فى وادى النيل تجمعهم معا ضد أبناء الوادى ، ولكن كامس يتنبه للمؤامرة ، ويقبض على رسول الهكسوس الذى كان

فى طريقه الى الجنوب ، فيقول النص : « اننى قبضت على رســـول وهو فى طريقه الى الواحات متجها الى كوش من أجل رسالة مكتوبة ، وعثرت معه على هذه الرسالة مكتوبة من حاكم أواريس « أنا عا أوسر رع بن رع أبوبى أحيى ولدى حاكم كوش ،كيف أصبحت حاكما دون أن تبلغنى ؟ ألم تر ما صنعته مصر نحوى ؟ ان حاكمهـــا كامس القوى أخرجنى من أرضى ولم أصـــل اليـه وبعد كل الذى فعله نحوك ، فانه اختـــار الأرضين ليدمرهما ، أرضى وأرضك ، وانه قضى عليهما ، احضر الى الشمال ولا تهابه ، انظر انه معى ، ولن أتركه يرحل حتى تصل ، وبعد ذلك ســـوف نقسم مدن مصر هذه بيننا » .

وبعد أن يسحق كامس هذه المؤامرة فى مهدها نراه يلتفت الى حصـــار حصون الهكسوس فى أواريس ، فهو يسجل أنه اقترب من أسوار المدينة وخاطب نسوتها مهددا اياهن بعدم النظر من النوافذ العليا للقصور الملكية ،ولكن من المؤكد أن حصـــون أواريس لم تسقط فى يد كامس ، فهذهالخطوة تمت على يد أحمس فيما بعد ، ويبدو أن كامس دخل المدينة ذاتها ودمرها ثم عاد بعد ذلك الى طيبة حيث استقبل استقبال الأبطال الظافرين ، وأمر كامس بتسجيل نص انتصاراته على لوحة وضعت فى معبد الكرنك .

ولا جـــدال فى أن كامس قام بدور هام فى كفـــاح الهكســـوس ، وهو ان لم يكن بالدور الحاســـم فان ذلك لا يقلل من أهميته ، اذ استطاع كامس أن يلزم الهكسوس عقر حصونهم فى شرق الدلتا ، واستطاع أن يخلق القوة

المصرية المتحدة التى تصمد لهم وتوقع بهم الهزائم المنكرة ولابد أنه حارب بعض البيوت المصرية الموالية للهكسوس أو المتقاعسة عن الكفاح حتى تمكن من توحيد قوة المصريين وبذلك مهد الطريق لشقيقه الأصغر أحمس الذى انتهى بالكفاح الى نهايته المظفرة ٠

- ٤ -

رأينا أن أحمس هو الابن الأصغر لسقنن رع وأياح حتب والارجح انه ولد حوالى عام ١٦٠٠ ق٠م٠ لأن وفاته كانت فى عام ١٥٥٨ ق٠م٠ وتدل موميته على أنه مات فى الاربعين من عمره أو أكثر من ذلك بقليل ٠

وعلى يد هذا الملك الشاب تحررت مصر نهائيا من الهكسوس وأرسيت أسس الامبراطورية المصرية فى آسيا التى واصل بناءها فراعنة الاسرة الثامنة عشرة المتعاقبون٠

وتشير الدلائل الى أن أحمس تولى العرش وزعامة الحركة الوطنية وهو فى مقتبل الشباب فى حوالى الثامنة عشرة من عمره ، ولا شك أن والدته أياح حتب لعبت دورا كبيرا فى حياته ، فهذه السيدة العظيمة التى تشربت بالروح الوطنية عن والدتها تيتى شرى ، وفجعت فى مصرع زوجها سقنن رع بأيدى الأعداء ، وقدمت ابنها كامس للجهاد اصبح لها الآن المكانة الاولى فى البلاد وهى تتولى الاشراف على ابنها الصغير أحمس ، فمن المنطقى أن تنظر اليه باعتباره أملها المأمول وأن تتعشم أن يتحقق على يديه

حلم حياتها الذى ضحت فى سبيله كثيرا وهو تخصيص مصر من أعدائها الآسيويين .

وهناك ما يدل بصفة قاطعة على أن أياح حتب كانت تلعب دورا فى السياسة ، ومن المرجح أنها كانت وراء تحالف عقد بين طيبة وكريت ضد الهكسوس ، ويبدو أن الهكسوس لم يسيطروا على مصر وحدها وانما كان نفوزهم قويا فى كل منطقة الشرق الادنى بما فيهـــا جزر البحر المتوسط ، ووجد شعب كريت ذو الحضارة العريقــة فى كفاح المصريين أكبر معين لهم فى التخلص هم أيضا من سيطرة الهكسوس ، ولذلك منحوا الملكة المصرية أياح حتب لقب ربة الجزائر اعترافا منهم بفضلها الشخصى عليهم .

ولم تنتظر اياح حتب طويلا حتى يتحقق الامل ، اذ سرعان ما تحقق على يد ابنها الشاب الرائع أحمس ، واذا افترضنا ان الهكسوس خرجوا من مصر نهائيا عام ١٥٧٥ ق.م. كما يعتقد معظم المؤرخين يكون عمر أحمس فى ذلك الوقت ٢٥ عاما ويكون قد حقق هذا النصر بعد ســبع سنوات من حكمه .

وليست هناك للأسف آثار تركها أحمس تسـجل انتصاره على الهكسوس بخلاف ما فعله أخوه الاكبر كامس الذى سجل قصة كفاحه كاملة ، وهذه نقطة تســتحق الوقوف عندها ، فكيف لا يسجل أحمس مثل هذا الحدث التاريخى الهام ؟

هناك احتمـال ضئيل فى أن يكون أحمس قد ترك

مثل هذا الاثر ولكنه ضاع ، غير أن الارجح أن أحمس لم يفعل فليس من السهل أن يضيع مثل هذا الأثر الهام فى حين أن آثار أحمس الاخرى والاقل أهمية باقية ، ويبدو أن احمس لم يكن يعتبر طرد الهكسوس اهم اعماله بل كان يعتبر اعماله الانشائية الـــكبرى فى الداخل أكثر أهمية ٠

وعلى أية حال فان هذا الحدث العظيم لم يمر لحسن الحظ بدون تسجيل ، فقد وصلتنا معلومات قيمة عنه مما سجله أحد ضباط جيش أحمس على جدران مقبرته ، وهذا الضابط يدعى أحمس بن أيانا نسبة الى والدته اما والده فكان يدعى بابا بن رونيبه وكان ضابطا ايضا فى جيش سقنن رع ، وكانت أسرة هذا الضابط فى مدينة نخب أو الكاب جنوبى ادفو على مقربة من السودان ، وكانت هذه المدينة حليفة لطيبة وساهمت فى صد هجمات النوبيين على مصر ٠ وقد اشترك أحمس بين ايانا فى قتـــال الهكسوس وحصل على اوسمة شرف ومكافآت كثيرة وعاش الى عهد امنحتب الاول خليفة أحمس ، واقام لنفســـه مقبرة فى الكاب سجل عليها تاريخ حياته وماضيه العسكرى ، ومنه نعرف تفاصيل كثيرة عن الفصل الختامى من حرب التحرير الكبرى ، ولندع أحمس بن ايانا يتحدث عن هذه الصفحة المجيدة من تاريخ مصر :

« أمضيت شبابى فى مدينة نخب ، كان أبى ضابطا لدى ملك مصر العليا والسفلى ســـقنن رع المنتصر وكان

يدعى بابا بن رونييه . وقد خدمت كضـــابط بحرى فى سـفينة تسمى « القربان » فى زمن الملك احمس الاول المنتصر ، وكنت حينئذ شابا صغيرا لم أتزوج بعد ، وبعد أن صنعت لنفسى بيتا نقلت للخدمة فى اسطول الشـمال بسبب تفوقى » .

أى انه نقل من مدينة الكاب ليحارب الآسيويين فى الشمال ، ورغم أنه كان ضابطا بحريا الا أنه التحق بالمشاة فى اول الامر ، اذ تمضى قصة حياته قائلة :

« تبعت الملك على قدمى عندما كان يركب عجلتـــه الحربية ، انه (الملك) حاصر مدينة أواريس ، وقد أظهرت شجاعة وأنا أحارب على قدمى امام جلالته ، ثم عينت فى سفينة تسمى « مشرق ممفيس » وحاربت فى مياه قناة بازدكو فى أواريس ، ثم حاربت ملتحمـــا يدا بيــد ، واستوليت على أحد الأسرى ، ولما بلغ ذلك الى المســامع الملكية منحنى الملك ذهب الشجاعة . ثم تجدد القتال مرة أخرى فى ذلك المكان ، وحاربت ثانية هنـــاك يدا بيد ، وحصلت على أسرى آخرين ، ومنحنى الملك ذهب الشجاعة مرة اخرى » .

وأثناء انشغال احمس فى محاربة الهكسوس حول أواريس قامت ثورة فى الجنوب من احدى الاسر المحلية بالكاب فقطع أحمس حصاره لأواريس ، أو أبقى الحصـار بجزء من قواته فقط ، وسارع بنفسه الى الجنوب لسـحق

التمرد مصطحبا معه احمس بن أبانا الذى يروى ما حدث قائلا :

« لقد حاربت فى مصر جنوبى تلك المدينة (الكاب) واستوليت على أسير حى حملته معى على صفحة الماء ، ولما بلغ هذا الامر المسامع الملكية منحنى هو (الملك) الذهب بالمعيار المزدوج » .

وبعد أن سحق أحمس ثورة الجنوب واطمأن الى تأمين ظهره ، قفل راجعا الى الشمال ، واستأنف حصار أورايس حتى استولى عليها ويعلن الضابط البحرى أحمس بن أبانا هذا الحدث الهام باقتضاب شديد لا يناسب أهميتـــــه فيقول :

« لقد سقطت أواريس ، وأسرت من هنـــاك رجلا وثلاث نساء ، المجموع اربعة رءوس ، أعطانيهم جلالتـــه كأرقاء » .

وخرج الهكسوس من مصر فارين الى جنوب فلسطين حيث تحصنوا فى مدينة « شاروهين » التى مكانها الآن « تل فرعة » وسارع أحمس يتعقبهم ، اذ أدرك ان انتصاره لن يكون حاسما طالما ظل الهكســـوس قابعين على حدود الوطن يتحينون لحظة الانتقام ، وفرض المصريون الحصـــار حول شاروهين مدة ثلاث سنوات ، وهى أطول مدة لحصار عسكرى فى التاريخ ، ويبدو أن الهكسوس استماتوا فى الدفاع عن هذا المعقل القوى ، ولكن شاروهين ســقطت فى النهاية ، اذ يقول ضابطنا البحرى :

« لقد حاصر جلالته شاروهين ثلاث سنوات ثم استولى عليها ، وأسرت هنـاك امرأتين ورجلا ، ومنحنى الملك ذهب الشجاعة الى جانب الاسرى كعبيد » .

والارجح أن الهكسوس بعد اندحارهم فى شاروهين وأصلوا انسحابهم شمالا ، ومضى احمس يتعقبهم مرة أخرى ، اذ تعرف من أثار ضابط آخر يدعى « أحموسى بن نخبت » انه حارب تحت قيادة احمس فى مكان يدعى « زاهى » فى شمال سوريا .

وبعد ذلك عاد احمس الى مصر حيث عكف على انجاز مهمتين عاجلتين ، الاولى استعادة الممتلكات المصرية فى النوبة ، والثانية اخماد الثورات المحلية فى مصر التى قام بها بعض المتشيعين للهكسوس .

فقد كانت بعض مناطق النوبة قد استغلت فرصة ضعف الرقابة عليها وانشغال المصريين بمحاربة الهكسوس واعلنت انفصالها عن مصر ، وقد رأينا ان احمس اضطر من قبل الى قطع حصار اواريس لاخماد احدى ثورات النوبة والآن ها هو ذا قد تفرغ لهذه المهمة فأخذ يتغلغل فى الجنوب لاعادة سيادة مصر فى تلك الاصقاع ، ولا نعرف الى اى مدى تغلغل احمس فى النوبة ،ولكن يبدو انه استعاد المنطقة الواقعة بين الشلال الاول والشلال الثانى ، وكان احمس بن ابانا يرافقه فى هذه الحملة أيضا ويحصل كعادته على الاسرى وذهب الشجاعة .

غير أن متاعب احمس لم تقف عند هذا الحد اذ قامت

ثورات محلية فى مصر من بعض المتشـــيعين للهكسوس الذين احنقهم طردهم من البلاد ، وهؤلاء اما ان يكونوا من أصل هكسوسى واما ان يكونوا طبقة من المصريين كانت تتعامل مع الهكسوس وتستفيد من وجودهم كأية طبقـــة رجعية محلية موالية للاستعمار ، وقد سحقهم احمس بدون هوادة ، اذ يقول أحمس بن ايانا فى ختام تسجيله لقصة حياته على جدران قبره :

« ثم نأتى الى ذلك الساقط المدعـو تيتى ان الذى تجمع حوله المتمردون، لقد ذبحه جلالته هو وخدمه وابادهم تماما ، وعندئذ أعطانى ثلاثة عبيد وخمسة شتات من الارض فى مدينتى » .

والمؤكد ان احمس لم يغفل الشرق تماما بعد هزيمته للهكسوس فى شاروهين وزاهى بل كان طوال مدة حكمه يرسل الحملات الى الشرق لتأكيد انتصاراته والقضاء على أى تجمعات جديدة يحاول ان يقوم بها الاعداء ، اذ تدل بعض الآثار على ان احمس فى السنة الثانية والعشرين من حكمه اى فى أواخر أيام حياته القصيرة المليئة بالاحداث كان لا يزال يستخدم فى عمليات البناء التى يقوم بها فى مصر الثيران التى غنمها من الآسيويين ممـــا يدل على أن حروبه ضد الهكسوس او غيرهم من الاقوام الآسيوية قد استمرت على الاقل حتى وقت قريب من هذا التاريخ .

وبهذا الكفاح الطويل استطاع أحمس أن يثأر لمصر من اعدائها ، ويؤمن حدودها فى الشمال والجنوب ، ويقضى

على القلاقل والاضطرابات فى الداخل ، والتفت بعد ذلك وفى اثنائه الى اعمال الاصلاح الداخلى كفرض الامن وانشاء الطرق واصلاح الاراضى وتنظيم الاحوال الاجتماعية واقامة المعابد والمبانى والتماثيل وتوسيع الكرنك ، فقد ورث دولة مريضة مثخنة بالجراح افاقت لتوها من كابوس استمر عشرات بل مئات السنين ولا تزال دماؤها تنزف بعد حرب التحرير الطويلة التى لم تكن نزهة عصارى على أية حال .

والواقع ان المهمة التى كانت تواجه احمس فى بناء الدولة كانت تعادل او تفوق المهمة التى واجهت مينا وامنمحات من قبل ، فالثلاثة يبدءون تقريبا من خط الصفر ويحاولون اقامة دولة متينة البنيان على انقاض أمة ممزقة بين عشرات الوحدات المتناحرة ، ولذلك فمن العدل ان يوضع كل منهم على رأس حقبة كاملة من تاريخ مصر القديمة ، مينا على رأس الدولة القديمة ، وامنمحات على رأس الدولة الوسطى ، وأحمس على رأس الدولة الحديثة وليس هذا التقسيم من وضع المؤرخين المحدثين فحسب ، وانما كان قدماء المصريين يشعرون به ايضا ، ففى الازمنة المتأخرة من مصر القديمة كان المصريون يعبدون هؤلاء الابطال الثلاثة باعتبارهم قادة الحضارة المصرية فى كل العصور . ولهذا السبب أيضا وضع مانيثون أحمس على رأس اسرة جديدة هى الاسرة الثامنة عشرة ، رغم أنه بحكم

انتمائه الى بيت طيبة الحاكم يعد امتدادا للاسرة السابعة عشرة .

والحق ان احمس وجد كل التأييد والمساعدة من الشعب المصرى الذى هزته محنة الهكسوس من الاعماق فلأول مرة يهجر الفلاح المصرى أرضه ومحراثه ومواشيه ليحمل السلاح لتحرير وطنه ، وقد كانت جيوش الفراعنه قبل حرب التحرير ضد الهكسوس قوات غير نظامية تتكون أساسا من المرتزقة أو المجندين لفترة قصيرة ولغرض معين ، وكان الجيش يسمى جيش فرعون ، اما بعد طرد الهكسوس فقد أصبح الجيش قوة نظامية دائمة وصار يسمى جيش مصر أو جيش الشعب .

فلما انتهت المحنة وعاد الفلاحون الى واديهم الحبيب وضعوا اسلحتهم جانبا ، وامسكوا مرة اخرى بأدوات الحضارة الفأس والمحراث والازميل والمنشار ، وواصلوا دأبهم القديم لبناء وطنهم من جديد ، وهم يستمدون طاقة هائلة على العمل من حالة الحماسة الوطنية التى ملأت الصدور بعد خلاصهم من المستعمر البغيض .

وقد رأينا ان احمس امضى بقية حياته فى أعمال البناء الداخلى ، ثم تبعه فى ذلك ابنه وخليفته امنحتب الاول الذى عكف كذلك على الاصلاح والتشييد بمعاونة والدته الملكة أحمس نفرتارى ، وظل المصريون يذكرانهما طويلا بفضل ما أنجزاه من جلائل الاعمال .

خاتمة

لقد ضرب المصريون فى جهادهم لتحرير وطنهم من براثن الهكسوس اول مثل فى التاريخ على جدوى الكفاح المسلح وأثبتوا أنه أقصر الطرق وأضمنها لتحقيق النصر ، فقد رزحوا أكثر من مائة وخمسين عاما تحت الاحتلال الاجنبى حين لم يكن فى مقدرتهم مقاومة قوة الهكسوس بقوة مماثلة ، ولكنهم عندما لجأوا الى الكفاح المسلح حرروا وطنهم فى فترة وجيزة وعلى نحو ملهم وحاسم .

وليس من شك أن الهكسوس كانوا محاربين من الطراز الأول بل كانوا أساتذة للمصريين فى فن الحرب ، فقد تعودوا خشونة الحياة فى الصحراء ومجالدة شتى الأعداء الذين يتصدون لهم مما أكسبهم خبرة طويلة بفنون القتال بالاضافة الى تفوقهم فى السلاح فقد كانوا يتميزون بأنواع مستحدثة من الأسلحة مثل المركبة الحربية التى تجرها الجياد ، وهو سلاح لم يكن له نظير فى عهده وكان له من التأثير ما للدبابة الحديثة فى ترجيح كفة القتال ،

كما تفوق الهكسوس أيضا فى صناعة الاسلحة اليدوية كالسيوف والخناجر والرماح والسهام المزدوجة من أصلب المعادن ، فقد كانوا يصنعونها من الحديد المصهور حيث يوجد هذا المعدن بوفرة فى بيئتهم الأصلية بجبال طوروس والقوقاز فى حين ان المصريين كانوا يصنعون معظم أسلحتهم من الظران (قطع الصوان) وبعض المعادن البسيطة .

وأخذ المصريون عن الهكســـوس بعض طرقهم فى صناعة الاسلحة وأدوات الحرب ، ومنهـــا العربة التى يجرها الحصان ، وليس هناك دليل تاريخى قاطع على أن المصريين استخدموا العربة الحربية ضد الهكسوس ولكن قرائن الاحوال تؤيد انهم اســـتخدموها بالفعل ، فقد انتشرت العربة الحربية لدى المصريين على نطاق واسع فى عهد الاسرة الثامنة عشرة وفتوحاتها الامبراطورية ، ومن المنطقى أن يكون استخدامها قد بدأ منذ الوقت الذى كان فيه هذا السلاح خطرا مسلطا على مصر ، فليس من المعقول ان يظل المصريون الراغبـــون فى تحرير وطنهم غافلين عن استخدام هذا السلاح المتفوق الى ما بعد تخلصهم من خطره .

ومما يلفت النظر أيضا اهتمـــام المصريين فى هذه المرحلة بالاسلحة الصغيرة ، فقد اجادوا صناعتها من حيث الطريقة والمادة ، وعثر على الكثير من هذه الاســـلحة فى توابيت وقبور ذلك العهد ، ومنها تابوت الملك كامس الذى عثر فيه على خنجر من الطراز النوبى طول نصـــله ٢١

سنتيمترا ، وكذلك تابوت أمه الملكة اياح حتب الذى عثر فيه على بلطة حربية وبعض الاسلحة الاخرى ولم يكن وضع الاسلحة فى توابيت الملوك من العادات المألوفة من قبل .

واذا كان الهكسوس قد تفوقوا فى سلاح المركبات فالارجح بل المؤكد ان المصريين تفوقوا فى سلاح الاسطول وفن الحرب على صفحة الماء ، فالمصريون منذ أقدم عصورهم قد برعوا فى الملاحة النهرية لأن النيل يمثل بالنسبة لهم خط المواصلات الرئيسى الذى يربط واديهم الطويل شمالا وجنوبا ، وقد صنعوا منذ أقدم العصور السفن المتينة السريعة لاغراض النقل والتجارة بل والقتال فنسمع منذ عهد الدولة القديمة عن عمارات بحرية مصرية تصل الى شواطىء فينيقيا للتجارة أو التأديب، فى حين ان الهكسوس سكان الصحراء لم يتمرسوا بالطبع على ركوب الماء والقتال فيه .

وكثيرا ما يبرز سلاح الاسطول فى سجلات الحرب ضد الهكسوس ، فقد رأينا كامس يتحدث عن اعتماده الكبير على الاسطول فيستخدم تعبيرات مثل « سأبحر شمالا » و « قضيت الليل فى سفينتى » مما يدل على أن القائد المصرى كان يتخذ من احدى السفن مقرا لقيادته ، كما لعب الاسطول ــ دورا أكبر فى حروب أحمس ، بل ان الأثر الوحيد الباقى عن حروب أحمس سجله ضابط بحرى هو أحمس بن ايانا وأوضح فيه الدور الهام الذى قام به الاسطول المصرى فى تحرير البلاد .

كان الكفاح المسلح هو الدرس الاول الذى تعلمه

المصريون من احتلال الهكسوس ، ولكنهم لم يلبثوا فيما بعد ان ادركوا معنى درس آخر أكثر خطرا وتأثيرا فى تاريخ المنطقة ، فقد أدركوا ان الدفاع عن مصر لا يجب أن يقف عند حدودها حتى لا تتعرض البلاد لمحنة أخرى من محنات الغزو لا سيما ان دولا قوية بدأت تظهر فى منطقة الشرق الادنى وتنافس مصر على الزعامة .

أدرك المصريون ان خطوط الدفاع الامامية عن بلادهم تقع فى آسيا ، وما من ريب - كما يقول دريوتون - أن فكرة هذه السياسة كانت موجودة عند الملك أحمس لكنه أدرك بحكمة عظمى أنه من الخطر أن يتورط فى مغامرة آسيوية قبل ان يأسو جراح مصر وان يحكم تماسكها الداخلى ، ولما تم ذلك فى عهده وعهد خلفائه المباشرين بدأ فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ينتهجون سياسة الغزو والتوسع فى الخارج ونبذوا تماما سياسة العزلة الوطنية التى درجت عليها مصر منذ اقدم العصور ، وكانت لهذه السياسة الامبراطورية التى تعتبر رد فعل مباشر لغزو الهكسوس نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق القديم .

غير ان سياسة التوسع الامبراطورى التى بلغت أوجها فى عهد تحتمس الثالث ان كانت قد بدأت بدوافع سياسية وعسكرية فسرعان ما تمخضت عن منافع اقتصادية هائلة حين بدأت الجزية تصل الى مصر من مختلف أنحاء الامبراطورية ويشارك فى الانتفاع بها الملوك والكهنة وقادة الجيش بل وكل الطبقات الشعبية الصغيرة ، وهكذا تحولت

مصر دون أن تدرى وتحت وطأة الاحداث المعاصرة الى دولة استعمارية تزج بنفسها الى اقصى حد فى صراع القوى الدائر بين دول العالم القديم مثل بابل واشور والميتانى والحيثيين وجزء بحر ايجه وشعوب البادية ، وهـذا هو الوضع الذى ثار عليه اخناتون بمثله الانسانية الراقية التى لم يكن يقبلها منطق العصر .

وعلى اية حال فقد أثبتت مصر بكفاحها ضد الهكسوس انها قد تكبو ولكنها لا تلبث ان تقوم ، قد تسفى عليها الرمال ثم تنجلى عن وجهها الصبور ، قد تدوسها سنابك الخيل وترتفع فى سمائها أعلام الغرباء ، ولكنها لا تلبث ان تنتفض كالمارد الجبار وتنفض عنها كل الطفيليات وتواصل طريقها الحضارى الطويل .

نص ما ذكره المؤرخ المصرى مانيتون عن الهكسوس والفترة التالية لهم كما أورده المؤرخ اليهودى فلافيوس يوسيفوس فى كتابه « الرد على ابيون »

* *

فيما عدا الوثائق الأثرية الضئيلة التى تحدثت عن احتلال الهكسوس لمصر وكفاح المصريين للتخلص منهم ، وهى الوثائق التى تناولها هذا الكتاب بالتحليل مثل قصة سقنن رع وأفراس البحر ، والنصب التذكارى لكفاح كامس ،وتاريخ حياة أحمس بن أبانا .. فيما عدا هذه الوثائق ليس هناك ذكر للهكسوس فى كتب الاقدمين سوى تلك النبذة التى كتبها المؤرخ المصرى مانيتون الذى عاش

فى القرن الثالث قبل الميلاد ضمن كتابه عن تاريخ مصر ، وقد ضاع هذا الكتاب للأسف والأرجح أنه فقد فى حريق مكتبة الاسكندرية ، ولكن تسربت منه هذه النبذة الى تاريخ يوسيفوس فى كتابه المسمى « الرد على أبيون » أو « ضد ابيون » . وقد أوردها يوسيفوس على أساس أن الهكسوس هم أنفسهم اليهود وذلك للتدليل على عراقة اليهود ، وهى دعوى متهافتة كما يرى معظم المؤرخين حتى شارحى يوسيفوس أنفسهم ، ونحن اذ ننقل الآن هذه النبذة بالكامل الى العربية لأول مرة نود أن نحـــذر من احتمال أن يكون يوسيفوس قد لجأ الى بعض التحوير فى كلام مانيتون اثباتا لدعواه الزائفة ، وهو أمر لا يستبعده المؤرخ الامريكى جون ويلسون الذى يرى أن يوسيفوس لم يكن فوق الشبهات ، ولكن على أية حال فاننا نورد هذا النص باعتباره أقدم نص تاريخى يتناول فترة احتلال الهكسوس مصر .

يقول يوسيفوس :

« ١٤ ـ سوف أبدأ بكتابات المصريين ، ليست فى الواقع تلك الكتابات التى باللغة المصرية لأن من المستحيل بالنسبة لى أن أفعل ذلك ، وانما بكتابات مانيتون الذى رغم كونه مصريا بالمولد الا أنه برع فى الثقافة الاغريقية كما هو واضح ، الى حـد أنه كتب تاريخ بلاده باللغـــة الاغريقية بأن ترجم هذا التاريخ ، كما يقول هو نفسه ، من سجلاتهم المقدسة ، وهو أيضا وجد هيرودوت مخطئا

فى أشياء كثيرة بسبب جهله وسطحية علاقاته بالشئون المصرية . والآن فان مانيتون هـذا فى كتابه الثانى عن التاريخ المصرى يكتب بخصوصنا (أى اليهود) على النحو التالى . وسوف أورد كلماته نفسها كما لو كنت أستدعى الرجل ذاته للادلاء بشهادته أمام المحكمة :

« فى عهد تيماوس أصابتنـا ، ولست أدرى لماذا ، نقمة من الاله ، فاندفع نحونا أقدام مجهولو الأصل جاءوا من المناطق الشرقية ، وكانوا من الجسارة الى الحد الذى جعلهم يقومون بغزو بلادنا ، وقد أخضعوا البلاد بسهولة دون أن نخوض معركة معهم ، وعندما تمكنوا من اخضاع الذين كانوا يحكموننا لقوتهم أقدموا بعد ذلك على احراق مدننا ، واتلاف معابد الآلهة ، وعاملوا جميع السكان بوحشية بالغة فذبحوا البعض واسترقوا أبناءهم وزوجاتهم ثم جعلوا واحـدا منهـم ملكـا على البـلاد كان يدعى سـالاتيس وقد أقام فى ممفيس وأرغم الوجهين القبـلى والبحرى على دفع الجزية اليه وأقام الحاميات فى الأماكن المناسبة ، وعمل بوجه خاص على تحصين المناطق الشرقية لأنه كان يخشى أن الأشوريين ، الذين كانت لهم حينئذ أكبر قوة ، قد يطمعون فى هـذه المملكة ويقـدمون على غزوها ، وعندما وجد فى اقليم سايت مدينة مناسبة تماما لغرضه تقع على الفرع البوباسطى ولكنها طبقا لفكرة دينية معنية كانت تسمى أواريس ، أعاد بناءها وجعلها قوية جدا بالاسوار التى بناها حولها وبما وضعه فيها من حامية

قوية تبلغ مائتين وأربعين ألفا من الرجال المسلحين ، وكان سالاتيس يذهب الى هناك فى فصل الصيف ليشرف على جمع محصوله ودفع مرتبات جنوده من ناحية وليجرى تدريبات لرجاله المسلحين وليرهب الأجانب من ناحية أخرى ، وعندما حكم هذا الرجل ١٣ عاما حكم بعده آخر يدعى بيون مدة٤٤ عاما ،وبعده حكم آخر يدعى أباخناس لمدة ٣٦ عاما وسبعة أشهر ، وبعده أبو فيس حكم ٦١ عاما، ثم جونياس حكم ٥٠ عاما وشهرا واحدا ، وبعد هؤلاء جميعا حكم أسيس ٤٩ عاما وشهرين ، وهؤلاء الستة كانوا الحكام الاول منهم ، وكانوا طوال هذه الفترة يحاربون المصريين ويودون لو استطاعوا تدريجيا أن يجتثوهم من جذورهم . هذه الامة كلها كانت تدعى هكسوس ومعناها الملوك الرعاة لأن المقطع الاول هيك طبقا للغة المقدسة معناه ملك ، وسوس معناها رأع ، ولكن هذا طبقا للسان الدارج ومن المقطعين جاءت كلمة هكسوس : ولكن البعض يقولون: « أن هؤلاء الناس كانوا عربا » والآن ، هناك نسخة أخرى تقول ان هذه الكلمة ليس معناها ملوكا ولكن على العكس معناها الرعاة الأسرى على أساس أن المقطع هيك فى اللسان المصرى معنـاه الرعاة وهو شيء معبر أيضـا ويبدو لى الرأى الاكثر احتمالا والاكثر اتساقا مع التاريخ القديم .

ولكن مانيتون يمضى قائلا :

« هؤلاء الناس الذين أسـميناهم من قبل ملوكا ، ويسمون أيضا بالرعاة ، هم وأحفادهم سيطروا على مصر

٥١١ عاما » وبعد ذلك يقول : « ان ملوك طيبة وغيرها من أجزاء مصر ثاروا ضد الرعاة وقامت بين الطرفين حرب مريرة وطويلة » ثم يقول بعد ذلك « وجـــاء ملك يدعى اليسفرا جموتوسيس أخضع الهكسوس وطردهم فى الواقع من جهات أخرى فى مصر ولكنهم التزموا مكانا مساحته عشرة آلاف أكر : هذا المكان كان يدعى أواريس » ويقول مانيتون : « أن الرعاة بنوا سورا حول كل هذا المكان ، كان سورا ضخما وقويا ، وذلك من أجل أن يحفظوا كل ممتلكاتهم ورهائنهم فى مكان حصين ، ولكن تحوموسيس ابن اليسفرا جموتوسيس قام بمحاولة لأخذهم بالقوة بأن حاصرهم بأربعمائة وثمانين ألف رجل ، ولكن عندما يئس من أخذ المكان بالحصار وصل الى اتفاق معهم بأن عليهم أن يغادروا مصر ، ويذهبوا دون أن يتعرض لهم أحـد بضرر ، وبعد أن تم هـذا الاتفاق خرجوا بكل أسراتهـم وأشيائهم وكانوا لا يقلون عددا عن ٢٤٠ ألفا ، وبدأوا رحلتهم من مصر عبر المتاهات الى سوريا ولكن لانهم كانوا يخشون الاشوريين الذين كانوا يسـيطرون عندئذ على آسيا لذلك بنوا مدينة فى تلك البـلاد تعرف الآن باسم جوديا (اليهودية) وكانت كبيرة بما يكفى للاتساع لهذا العدد الكبير من الناس ودعوها جيروساليم « والآن يقول مانيتون فى كتاب آخر من كتبه : « ان هذه الامة التى كانت تسمى بالرعاة كانت تسمى أيضا بالاسرى فى كتبها المقدسة » وهذه الحكاية هى الحقيقة لأن تربية القطعان كانت مهنة آبائنا الأوائل فى أكثر عصورهم قدما ، ولأنهم

كانوا يعيشون على هـذا النحو حيـاة الترحال لتربية القطعان لذلك سموا بالرعاة ، كما أن الأمر ليس يخلو من سبب فى أن يسميهم المصريون بالاسرى لأن أحد أجدادنا وهو يوسف قال لملك مصر : انه كان أسيرا ، وبعد ذلك أرسل فى طلب أخوته الى مصر بأذن الملك ، ولكن فيما يتعلق بهذه الامور سوف أفرد بحثـا أكثر دقة فى مكان آخر .

« ١٥ – ولكننى الآن سوف أقدم المصريين كشهود على عراقة أمتنا ، ولذلك سوف أحضر مانيتون مرة أخرى وما يكتبه فيما يتعلق بترتيب الأزمنة فى هذه القضية ، وهكذا هو يتحدث : « عندما خرج هؤلاء الناس أو الرعاة من مصر الى جيروساليم حكم تيثموسيس ملك مصر الذى طردهم بعد ذلك ٢٥ عاما وأربعة أشهر ثم مات ، وبعده استولى ابنه شيرون على المملكة مدة ١٣ عاما وبعده جاء امينوفيس لمدة عشرين عاما وسبعة أشهر ثم جاءت أخته أميسيس لمدة ٢١ عاما وتسعة أشهر وبعدها جاء مفريس لمدة ١٢ عاما وتسعة أشهر وبعده جاء مفراموتوسيس لمدة ٢٥ عاما وعشرة أشهر وبعده جاء تيثموسيس لمدة تسـع سنوات وثمانية أشهر وبعده جاء أمينوفيس لمدة ٣٠ عاما وعشرة أشهر وبعده جاء أوروس لمدة ٣٦ عاما وخمسـة أشهر ثم جاءت ابنته اسنشريس لمدة ١٢ عاما وشهر واحد ثم أخوها راثوتيس لمدة تسع سنوات ، ثم أسنشريس لمدة ١٢ عـاما وخمسـة أشهر ، ثم جاءت أخرى تدعى

اسنشريس لمدة ١٢ عاما وثلاثة أشهر ، ثم أرمايس لمدة أربعة أعوام وشهر واحد ، وبعده جاء رمسيس لمدة عام وأربعة أشهر ، وبعده جاء أرمسيس ميامون لمدة ستين عاما وشهرين ، وبعده امينوفيس لمدة ١٩ عاما وستة أشهر ، وبعده جاء سيثوسيس ورمسيس الذى كان له جيش من الخيول وقوة بحرية ، وهذا الملك عين أخاه آرمايس ليكون نائبا له على مصر .

فى نسخة أخرى مثبتة كالآتى: وبعده جاء سيثوسيس ورمسيس وهما أخوان الأول منهما كانت له قوة بحرية ، وبطريقة عدوانية دمر هؤلاء الذين التقى بهم فى البحر ، ولكن بما أنه ذبح رمسيس بعد ذلك بفترة غير طويلة فقد عين أخا آخر ليكون نائبا على مصر .

وقد منحه أيضا كل سلطات الملك الأخرى ولكن بهذه القيود فقط ألا يرتدى لباس الرأس الملكى (التاج) وألا يسىء الى الملكة التى هى أم أطفاله وألا يتدخل فى شئون محظيات الملك الأخريات ، وذلك أثناء قيامه بحملة على قبرص وفينيقيا وأيضا ضد الأشوريين والميديين ، ثم أخضع هؤلاء جميعا البعض بقوة السلاح ، والبعض بدون قتال ، والبعض بقوة ارهاب جيشه العظيم ، وقد حمسه هذا النجاح الباهر الذى أحرزه فمضى قدما بجسارة أكبر وأطاح بالمدن والممالك التى تقع فى الجهات الشرقية .. ولكن بعد بعض الوقت أقدم أرمايس الذى تركه فى مصر على فعل كل هذه الأشياء المعينة التى منعه

عنها أخوه بدون خوف ، فقد استخدم العنف ضد الملكة، ومضى يستعمل بقية المحظيات دون أن يترك واحدة ثم أقدم تحت تحريض أصدقائه على ارتداء لباس الرأس الملكى ، وبدأ يعارض أخاه ، ولكن فى هذا الوقت بعث رئيس كهنة مصر رسالة الى سيثوسيس أخبره فيها بكل ما حدث ، وكيف بدأ أخوه يعارضه ، ولذلك قفل عائدا الى بيلوزيوم فورا ، واستعاد مملكته مرة أخرى وقد سميت البلاد على اسمه ايجبت لأن مانيتوس يقول : ان سيتوسيس كان يدعى اجيبتوس كما كان أخوه ارمايس يدعى دانوس .

« ١٦ ـ كان هذا حساب مانيتون ، ومن الواضح من عدد السنين التى وضعها لهذه الفترة ، اذا جمعت معا ، ان هؤلاء الرعاة ، كما يسمون هنا والذين هم ليسوا سوى أجدادنا ، طردوا من مصر ، وحضروا الى هنا وسكنوا هذه البلاد قبل ٣٩٣ عاما من مجىء دانوس الى ارجوس رغم أن الأرجوسيين يعتبرونه أقدم ملوكهم ، وعلى ذلك فان مانيتون يثبت بهذه الشهادة نقطتين عظيمتى الأهمية بالنسبة لما نحن بصدده وذلك من واقع السجلات المصرية نفسها ، ففى المحل الأول أننا جئنا من بلد أخرى الى مصر ، وأن خروجنا منها كان قديما جدا من الناحية الزمنية الى درجة أنه يسبق حصار طروادة بحوالى ألف عام . ولكن فيما يتعلق بتلك الأشياء التى أضافها مانيتون بعد ذلك والتى لم يأخذها من السجلات المصرية ولكن من

بعض القصص غير المؤيدة المصدر كما يعترف هو نفسه بذلك ، فسوف أتصدى لنقدها وأثبت أنها ليست أكثر من خرافات لا يقبلها العقل .

ثم يعود يوسيفوس الى الاقتباس مرة أخرى من مانيتون فى مكان آخر من كتابه « الرد على أبيون » ، ومن الواضح ان مانيتون يتحدث هنا عن طرد بنى اسرائيل من مصر :

« ٢٦ ـ والآن سوف أوجه بحثى الى أحد كتابهم الرئيسيين وهو الذى اتخذته من قبل شاهدا على قدمنا وأعنى مانيتون فقد وعد مانيتون أن يفسر تاريخ المصريين من كتاباتهم المقدسة ، وقد رأينا من قبل أنه قال : « ان شعبنا جاء الى مصر فى عدة عشرات من الآلاف ، وأخضع سكانها » ثم اعترف بعد ذلك بأننا « خرجنا من تلك البلاد فيما بعد ، واستقر بنا المقام فى ذلك البلد الذى يدعى الآن جوديا ، وهناك بنيت جيروساليم وهيكلها . » كان ذلك طالما أتبع الرجل سجلاته القديمة ، ولكنه بعد ذلك يسمح لنفسه بأن يكتب ما تردده الشائعات والانباء فى الخارج عن اليهود ، ويقدم حكايات لا يمكن تصديقها ، كما لو كان يتحدث عن الشعب المصرى ، بأنهم كانوا مصابين بالبرص وغيره من الامراض ، وأنهم امتزجوا بنا ، كما يقول ان ذلك قد حدث ، وأنهم قد حكم عليهم بالفرار من مصر وسوريا ، لأنه يذكر امينوفيس ، وهو اسم ملك وهمى ، ولذلك فانه لا يجرؤ أن يذكر عدد السنين التى حكمها كما فعل بالدقة بالنسبة للملوك

الآخرين الذين ذكرهم ، ثم هو ينسج بعض القصص الخيالية ويعزوها الى هذا الملك كما لو كان قد نسى ما سبق أن حكاه من قبل من أن رحيل الرعاة الى جيروساليم كان منذ ٥١٨ عاما قبل ذلك ، لأن تيموسيس كان الملك الذى خرجوا فى عهده ، ومنذ أيامه يبلغ عدد سنى حكم الملوك المتوسطين ، طبقا لمانيتون ، ٣٩٣ عاما كما يقول هو نفسه حتى زمن الأخوين سيتوس وهرميوس، وأحدهما ، وهو سيتوس ، كان يسمى أيضا اجيبتوس، والآخر وهو هرميوس كان يسمى رانوس ، وهو أيضا يقول : ان سيتوس طرد الآخر من مصر وحكم ٥٩ عاما كما فعل ابنه الاكبر رمبسيس الذى حكم بعده ٦٦ عاما ، ولذلك فعندما ينتهى مانيتون من القول بأن أجدادنا خرجوا من مصر منذ هذه المدة الطويلة يعود فيقدم ملكه اثوهمى أمينوفيس ، ويقول ما يلى :

« كان هذا الملك يرغب فى أن يشاهد الآلهة كما فعل أوروس أحد سابقيه فى تلك المملكة الذى رغب فى نفس الشىء من قبل ، ونقل رغبته الى سميه امينوفيس الذى كان ابنا لبابيس وكان يبدو مشاركا فى الطبيعة المقدسة سواء فيما يتعلق بالحكمة أو معرفة المستقبل » ويضيف مانيتون « ان سميه أبلغه أنه يمكن أن يرى الآلهة اذا استطاع أن يطهر البلاد كلها من البرصى وغيرهم من الناس الانجاس ، وأن الملك سر بهذه النصيحة وأمر بأن كل شخص تكون به عاهة فى جسمه يجب أن يغادر مصر ،

بعض القصص غير المؤيدة المصدر كما يعترف هو نفسه بذلك ، فسوف أتصدى لنقدها وأثبت أنها ليست أكثر من خرافات لا يقبلها العقل .

ثم يعود يوسيفوس الى الاقتباس مرة أخرى من مانيتون فى مكان آخر من كتابه « الرد على أبيون » ، ومن الواضح ان مانيتون يتحدث هنا عن طرد بنى اسرائيل من مصر :

« ٢٦ ـ والآن سوف أوجه بحثى الى أحد كتابهم الرئيسيين وهو الذى اتخذته من قبل شاهدا على قدمنا وأعنى مانيتون فقد وعد مانيتون أن يفسر تاريخ المصريين من كتاباتهم المقدسة ، وقد رأينا من قبل أنه قال : « ان شعبنا جاء الى مصر فى عدة عشرات من الآلاف ، وأخضع سكانها » ثم اعترف بعد ذلك بأننا « خرجنا من تلك البلاد فيما بعد ، واستقر بنا المقام فى ذلك البلد الذى يدعى الآن جوديا ، وهناك بنيت جيروساليم وهيكلها . » كان ذلك طالما اتبع الرجل سجلاته القديمة ، ولكنه بعد ذلك يسمح لنفسه بأن يكتب ما تردده الشائعات والانباء فى الخارج عن اليهود ، ويقدم حكايات لا يمكن تصديقها ، كما لو كان يتحدث عن الشعب المصرى ، بأنهم كانوا مصابين بالبرص وغيره من الامراض ، وأنهم امتزجوا بنا ، كما يقول ان ذلك قد حدث ، وأنهم قد حكم عليهم بالفرار من مصر وسوريا ، لأنه يذكر امينوفيس ، وهو اسم ملك وهمى ، ولذلك فانه لا يجرؤ أن يذكر عدد السنين التى حكمها كما فعل بالدقة بالنسبة للملوك

الآخرين الذين ذكرهم ، ثم هو ينسج بعض القصص الخيالية ويعزوها الى هذا الملك كما لو كان قد نسى ما سبق أن حكاه من قبل من أن رحيل الرعاة الى جيروساليم كان منذ ٥١٨ عاما قبل ذلك ، لأن تيموسيس كان الملك الذى خرجوا فى عهده ، ومنذ أيامه يبلغ عدد سنى حكم الملوك المتوسطين ، طبقا لمانيتون ، ٣٩٣ عاما كما يقول هو نفسه حتى زمن الأخوين سيتوس وهرميوس، وأحدهما ، وهو سيتوس ، كان يسمى أيضا اجيبتوس، والآخر وهو هرميوس كان يسمى رانوس ، وهو أيضا يقول : ان سيتوس طرد الآخر من مصر وحكم ٥٩ عاما كما فعل ابنه الاكبر رمبسيس الذى حكم بعده ٦٦ عاما ، ولذلك فعندما ينتهى مانيتون من القول بأن أجدادنا خرجوا من مصر منذ هذه المدة الطويلة يعود فيقدم ملكه انوهمى أمينوفيس ، ويقول ما يلى :

« كان هذا الملك يرغب فى أن يشاهد الآلهة كما فعل أوروس أحد سابقيه فى تلك المملكة الذى رغب فى نفس الشىء من قبل ، ونقل رغبته الى سميه امينوفيس الذى كان أبنا لبابيس وكان يبدو مشاركا فى الطبيعة المقدسة سواء فيما يتعلق بالحكمة أو معرفة المستقبل » ويضيف مانيتون « ان سميه أبلغه أنه يمكن أن يرى الآلهة اذا استطاع أن يطهر البلاد كلها من البرصى وغيرهم من الناس الانجاس ، وأن الملك سر بهذه النصيحة وأمر بأن كل شخص تكون به عاهة فى جسمه يجب أن يغادر مصر ،

وكان عدد هؤلاء الناس ٨٠ ألفا وقد أرسلهم الى المحاجر التى تقع على الجانب الشرقى من النيل من أجل أن يعملوا فيها وينفصلوا عن بقية المصريين » ويقول بعد ذلك أن « كان هناك بعض الكهنة المتعلمين قد تدنسوا مع البرصى وكان امينوفيس ، الحكيم والنبى ، لا يزال خائفا من أن الآلهة قد تغضب عليه وعلى الملك اذا ظهر أن القسوة استخدمت ضد الكهنة ، وقد أضاف أيضا أن أناسا معينين قد يأتون لمساعدة هؤلاء الموسومين الاشقياء ، ويهزمون مصر ويجعلونها فى حوزتهم ثلاثة عشر عاما ، ولكنه على أى حال لم يجرؤ أن يخبر الملك بهذه الاشياء، ولكنه ترك وراءه كتابة عن كل هذه الامور ثم ذبح نفسه مما جعل الملك يشعر باليأس » وبعد ذلك يكتب ما يلى « بعد أن استمر هؤلاء الذين أرسلوا للعمل فى المحاجر فى هذه الحالة البائسة مدة طويلة ، رغب الملك فى أن يخصص مدينة أواريس التى كانت عندئذ قد خلت من الرعاة لاقامتهم وحمايتهم وحقق لهم هذه الرغبة . والآن هذه المدينة ، طبقا للتقاليد الدينية القديمة ، هى مدينة طيفون ، ولكن عندما أرسل هؤلاء الناس اليها ووجدوا المكان ملائما للقيام بثورة عينوا بأنفسهم حاكما عليهم من كهنة هليوبوليس كان اسمه أوسرسيف واقسموا أنهم يطيعونه فى كل الامور ، وعندئذ أقدم هو كأول شىء على سن هذا القانون لهم : انه يجب عليهم ألا يعبدو آلهة المصريين وأن يرفضوا الحيوانات المقدسة التى لها المقام الاسمى، ولكن عليهم أن يقتلوها ويدمروها جميعا وأن عليهم

ألا يربطوا أنفسهم بأحد الا من هم داخل هذا التحالف ، وعندما استن لهم مثل هذه القوانين وكثيرا غيرها ممن تتعارض تماما مع عادات المصريين أمرهم بأن يستخدموا أيدى المجموع التى لديهم فى بناء أسوار حول مدينتهم ، ويعدوا أنفسهم لحرب مع الملك أمينوفيس ، بينما أخذ هو نفسه بصداقة الكهنة الموسومين وبعث بالرسل الى هؤلاء الرعاة الذين طردوا من البلاد على يد تيموسيس الى المدينة المسماة جيروساليم حيث أخبرهم بشئونه الخاصة ، وبحالة هؤلاء الآخرين الذين عوملوا بهذه الطريقة القاسية ، ورغب اليهم أن يمدوا له يد المساعدة فى حربه ضد مصر ، ووعدهم أيضا بأنه من جانبه سيمهد لهم العودة الى مدينتهم القديمة أواريس ، ويقدم مساعدات قيمة لشعبهم ، وأنه سوف يحميهم ويحارب من أجلهم اذا تطلبت الظروف ذلك ، وسوف يخضع البلاد بسهولة لسيطرتهم . وقد سر هؤلاء الرعاة كثيرا بهذه الرسالة وأقبلوا سراعا جميعا وكان عددهم مائتى ألف رجل ، وفى وقت قليل جاءوا الى أواريس ، ولما أبلغ امينوفيس ملك مصر بذلك شعر باضطراب عظيم وتذكر نبوءة امينوفيس بن بابيس ، فأقدم فى المحل الأول على جمع المصريين واستشار زعماءهم ، وأرسل فى احضار حيواناتهم المقدسة خاصة التى يخفيها الكهنة لتعبد بصفة رئيسية فى المعابد ، كما أرسل أيضا فى طلب ابنه سيتوس الذى كان يسمى أيضا رمسيس عن أبيه

رمبسيس ، ثم اتجه مع بقية المصريين وكان عددهم ثلثمائة ألف من أحسن المحاربين ضد الاعداء الذين لاقوهم ، ولكنه لم يخض المعركة معهم بل كان يعتقد أنها حرب ضد الآلهة ولذلك عاد الى ممفيس حيث أخذ أبيس وغيره من الحيوانات المقدسة التى أرسل فى طلبها وسار فورا الى أثيوبيا مع كل جيشه ومجموع المصريين لأن ملك أثيوبيا كان فى حلف معه فتلقاه بمقتضاه واعتنى بجميع الشعب الذى معه بينما أمدته البلاد بكل ما يلزم لاطعام الرجال كما قدم أيضا مدنا وقرى لهؤلاء المنفيين خلال هذه السنوات الثلاث عشرة المميتة ، وأكثر من ذلك أقام معسكرا لجيشه الاثيوبى كحرس للملك امينوفيس على حدود مصر ، وهذه كانت حالة الاشياء فى أثيوبيا ، أما عن شعب جيروساليم عندما جاء مع المصريين الموسومين فانهم عاملوا المصريين بطريقة وحشية ... لأنهم لم يحرقوا المدن والقرى فحسب وانما دنسوا المقدسات ودمروا صور الآلهة واستخدموها فى شواء الحيوانات المقدسة التى تعودوا عبادتها ، وأرغموا الكهنة والأنبياء على أن يكونوا قاتلى هذه الحيوانات ثم أخرجوهم عرايا من البلاد ، كما قيل أيضا : ان الكاهن الذى رسم سياستهم وقوانينهم وهو من مواليد هليوبوليس وكان اسمه أوسرسيف من أوزيريس الذى كان اله هليوبوليس ولكنه عندما ذهب الى هؤلاء الناس تغير اسمه وأصبح يسمى موسى . »

« وبعد ذلك عـــاد أمينوفيس من أثيوبيا على رأس جيش عظيم وعاد أبنه رمبسيس على رأس جيش عظيم آخر واشترك الجيشان فى معركـة مع الرعاة والناس الموســومين وهزموهم وذبحوا عـــددا عظيما منهم ثم طاردوهم الى حدود سوريا . »

المراجع

(أ) - المراجع العربية والمترجمة

١ - اتيين دريتون (وجاك فانديه)
مصر - ترجمة عباس بيومى .

٢ - أحمد فخرى
مصر الفرعونية

٣ - أحمد فخرى
دراسات فى تاريخ الشرق القديم

٤ - جوستاف لوبون
حضارة بابل وآشور - ترجمة محمود خيرت

٥ - جوستاف لو فيفر
روايات وقصص من العصر الفرعونى
- ترجمة الدكتور على حافظ

٦ - جون ويلسون
الحضارة المصرية - ترجمة الدكتور أحمد
فخرى

٧ ـ جيمس هنرى بوستيد
انتصار الحضارة ـ ترجمة الدكتور أحمد فخرى

٨ ـ سليم حسن
مصر القديمة ـ الجزء الرابع

٩ ـ عبد الحميد زايد
مصر الخالدة ـ الجزء الأول

١٠ ـ محمد العزب موسى
أول ثورة على الاقطاع

١١ ـ مجموعة من علماء التاريخ القديم
حضارة مصر والشرق القديم

١٢ ـ نجيب ميخائيل ابراهيم
مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول

13 - Allan Gardiner
Egypt of the Pharaons

14 - Glanville. S.R.K.
The legacy of Egypt

15 - James Henery Breasted:
A history of Egypt

16 - William Whiston:
The works of Flaviur Josephus

17 - The Jewish Encyclopedia